
رواية
اسرار فندق الضلال
علاء فاضل الاسدي

الإهـــــداء

إلى أولئك الذين يمشــون في أزقة المدن القديمة تحت وطأة المطر بعد منتصف الليل، ويعلمون أن خلف كل نافذة مغلقة في هذا العالم سرا لم يُروَ بعد...

وإلى عشاق الأدب البوليسي النوار الذي لا يبحث في الجريمة عن مجرد لغز عابر، بل يسبر أغوار النفس البشرية في ارتباكها، وخوفها، وتوقها العسير إلى الخلاص.

علاء فاضل الأسدي

روما - خريف ١٩٥٣

مقدمة الرواية: حبر التيبر وظلال الكابيتول

بقلم المؤلف: علاء فاضل الأسدي

حين تصمت روما في ليالي تشرين، لا يبقى حيا في شوارعها سوى رنين المطر على حجارة الترافرتين العتيقة وخرير مياه نهر التيبر الباردة، التي جرفت عبر القرون دماء الأباطرة وخيانات النبلاء وأسرار العشاق.

في هذه الرواية، لم أرد نسج لغز بوليسي تقليدي يعتمد على الصدفة أو المطاردات السطحية؛ بل أردت إحياء فن "النوار الايطالي

في أرقى تجلياته الأدبية والفلسفية. فندق "أليبرغو ديلي أومبري" ليس مجرد جدران وأجنحة مخملية تفوح منها رائحة التبغ والنبيذ المعتق؛ إنه مرآة لضمير مدينة خرجت لتوها من رماد حرب طاحنة، تظاهرت فيها النخبة بالنسيان، بينما بقيت الخزائن الحديدية في الأقبية تحتفظ باللوحات المنهوبة وسجلات الأنساب المغتصبة.

ستلتقون في هذه الصفحات بشخصيات تتنفس الألم والخديعة: رودولف مينيلي ا لذي توهم أن الحياد درع ينجيه من سياط الماضي، وكارلوس الهارب بهويات متعددة بين شوارع العاصمة، وماري الخادمة المكلومة التي تحولت دمعتها المقهورة إلى صاعق فجر عرش الجناة، ولوسيا فالكوني الفتاة التي لم ترهب الظلام فكانت شعلة الحقيقة.

الفصل الأول: نقرات على زجاج مبلل

في رو ما، لا يسـقط المطر لتطهير الشـوارع، بل لتلميع أحجار الترافرتين حتى تعكس خيانات المارة.

مقولة رومانية عتيقة

في ليلة تشـرين الأول العاصـفة دا خل فندق أليرغو ديلي أومبري العتيق المطل على نهر التيبر، يتحطم هدوء المالك رودولف بطرقات مذعورة تكشف اختفاء السيدة هيلين من الغرفة رقم ٣٧.

كانت الليلة تمطر بهدوء غامض، تتسلل قطرات الماء على نوافذ فندق «أليرغو ديلي أومبري» العتيق كأنها أنغام بطيئة تعزف على زجاج منسيّ. الهواء الروماني بارد، مشبع برطوبة نهر التيبر القريب، والسماء ملبّدة بغيوم ثقيلة تحجب القمر، تاركة الأزقة المحيطة بساحة نافونا غارقة في شبه ظلام يتربص به التاريخ.

بدا الفندق، الذي شُيّد في أواخر القرن الثامن عشر فوق أنقاض قصر أرستقراطي مهجور، ساكناً في تلك الساعة المتأخرة، كأن جدرانه السميكة المكسوة بورق الحائط الدمشقي المذهب تتهيأ لحدث لم يكن في حسبان أحد. كان النزلاء القلائل قد أووا إلى غرفهم مبكراً هرباً من الرياح الخريفية العاتية، تاركين الممرات الطويلة المفروشة بالسجاد العنابي الغائر في صمت ثقيل، لا يقطعه سوى صرير الخشب القديم ورنين حبات المطر المنتظم على المزاريب النحاسية.

لكن تلك الليلة لم تكن تشبه سائر الليالي.

السيد رودولف مينيلي، مالك الفندق، لم يغادر المبنى متجها إلى شقته في حي براجي كما اعتاد أن يفعل عند تمام التاسعة. اختار أن يقضي الليلة في جناحه الخاص بالطابق الثاني؛ جناح فسيح تتدلى من سقفه العالي ثريا من زجاج مورانو، وتتصدره مدفأة رخامية ضخمة حُفرت على جانبيها رؤوس أسود برونزية.

كانت برفقته الآنسة ستيفانيا روسي، مديرة الاستقبال وسكرتيرته التي تجاوزت منذ زمن حدود الوظيفة الرسمية. بالنسبة لرجل تجاوز الرابعة والخمسين مثل رودولف، عاش حياة محفوفة بالمكائد والحسابات المصرفية السرية في أعقاب سنوات الحرب المضطربة، كانت ستيفانيا تمثل الملاذ والمخزن الأمين لكل ما يعجز عن البوح به للعالم.
امرأة شابة في السابعة والعشرين، هادئة المشية، بعينين خضراوين بلون مياه بحيرة كومو حين يغشاها الضباب، تتقن فن الصمت كما تتقن رصد خلجات الوجوه.

جلس رودولف على الأريكة الجلدية الوثيرة المواجهة للموقد، يمسك بيده كأسا ثقيلة من نبيذ الكيانتي المعتق.

لهب الحطب كان يتراقص أمامه، ملقيا ظلالا طويلة ومضطربة على الجدران، تعيد رسم ملامح وجهه الحاد: جبين عريض تحده خصلات شيب أنيقة، وأنف دقيق يحمل صرامة نبلاء البندقية القدامى.

ومع كل رشفة، كان يغوص أعمق في حالة من الشرود الممزوج بخدر الثمالة والترقب.

- ما بالك شارد الليلة يا رودولف؟ همست ستيفانيا وهي تضع فنجان قهوتها الصغيرة على المنضدة الرخامية بجانبه. رفع بصره إليها ببطء، وتنهد بصوت خافت يشبه حفيف الشجر المبتل:
- هذه الرياح... تذكرني بخريف عام أربعة وأربعين. في مثل هذا الطقس بالضبط، كانت الشاحنات تمر ليلا عند ضفة النهر دون أضواء. حين تسمعين المطر يقرع الزجاج بهذه الشراسة، اعلمي أن المدينة تحاول غسل دمٍ ما أو إخفاء سر لن يلبث أن يطفو.
- الماضي مات يا سيدي، ونحن الآن في منتصف الخمسينيات. روما تعيد بناء نفسها، وهذا الفندق لم يعد ملجأ للهاربين.

ابتسمت ستيفانيا ابتسامة متكلفة، لكن بريقا حذرا لمع في عينيها.

- الفنادق يا عزيزتي لا تتغير... النزلاء فقط هم الذين يغيرون أسماءهم وأقنعتهم.

لكن هدوء الغرفة تحطم فجأة وبلا أدنى إنذار.

طرقات عنيفة، متلاحقة ومرتعبة، دوّت على باب الجناح الخشبي الثقيل، كأن قبضات قادمة من قاع كابوس تدك ألواحه المطعمة. ارتجفت يد رودولف لا إراديا، وسقط الكأس الكريستالي من بين أصابعه ليرتطم بالبلاط الرخامي. تناثر النبيذ القاني مع شظايا الزجاج في بقعة عريضة تشبه مسرح جريمة دموية قبل أن تبدأ.

وقف رودولف منتفضا، وجفلت ستيفانيا متراجعة نحو الستائر الثقيلة.

- ما هذا الجنون؟ من يجرؤ على هذا الطرق في هذه الساعة؟ تمتم بصوت متوتر يغالبه الغضب.

لم تمض ثانية حتى عاد الصوت من وراء الباب، لكنه كان صوتا أنثويا متوسلا يخنقه البكاء:

- سيدي رودولف! أرجوك افتح الباب... بحق السماء افتح!

اقترب رودولف من الباب بخطوات مترددة، حاملا في يده عصا الأبنوس الفضية التي يعتمد عليها عند الأزمات.

أدار المفتاح النحاسي الكبير وسحب المقبض. كانت الواقفة أمامه ماري، الخادمة الشابة التي اعتنى بها وآواها منذ سنوات.

كانت ترتدي مريولها الرمادي، وشعرها الأسود مبلل بقطرات تسربت من نوافذ الممر، ووجهها شاحب كشمع الكنائس المطفأ، ويداها ترتجفان بشكل هستيري.

صاح رودولف بصوت آمر:

- ماري؟ ما بكِ؟ هل فقدتِ صوابكِ لتطرقي جناحي بهذه الطريقة؟

- سيدي... الغرفة رقم سبعة وثلاثون... السيدة هيلين!

تعلثمت ماري وهي تشير بذعر نحو الممر الغربي للطابق.

تجمد جسد رودولف، وانعقد حاجباه بشدة.

- ما شأن السيدة هيلين؟

- قبل دقائق معدودة... كنت أصعد لتفقد مزاريب النوافذ في نهاية الجناح. سمعت صوت ارتطام خافت، ثم حركة سريعة لأقدام تركض نحو السلم الخلفي للخدمة. وحين توجهت إلى الغرفة ٣٧ لأستطلع الأمر، وجدت الباب مواربا... المصباح مشتعل على الطاولة، وحقائبها مفتوحة، لكن السيدة هيلين ليست هناك!

تقدمت ستيفانيا من خلف رودولف، وقد تحولت نظراتها الهادئة إلى حدة مفترسة.

- هل دخلتِ الغرفة يا ماري؟ هل لمستِ أي شيء؟

هزت ماري رأسها نفيا بقوة.

- لا يا آنسة ستيفانيا، أقسم لكِ... وقفت على العتبة فقط ورأيت الفراش مقلوبا ونافذة الشرفة مفتوحة للريح والمطر يدخل إلى السجاد!

ألقى رودولف نظرة سريعة على بقعة النبيذ الأحمر المسكوبة عند قدميه، ثم التفت إلى ستيفانيا بنبرة صارمة:

- أحضري مفاتيح الماستر من مكتبي، وتعالي معي فورا. لا نريد إيقاظ بقية النزلاء. وأنتِ يا ماري، ابقي هنا ولا تنطقي بحرف إن رأيتِ أحدا في الممر.

انطلق رودولف وستيفانيا في الممر الطويل.

كانت المصابيح الجدارية النحاسية الخافتة تلقي بظلال شبحية راقصة على اللوحات الزيتية العتيقة التي تصور مشاهد صيد من عصر النهضة. صوت المطر وهو يضرب الزجاج المقنطر كان يملأ الفراغ بصدى موحش.

(نظر رودولف إلى الأمام وعيناه تتفحصان عتمة الممر، ثم يتنفس ببطء محاولا استجلاء الشكوك):

- ستيفانيا... هل رأيتِ كارلوس الليلة؟

(توقفت ستيفانيا لبرهة واستحضرت صورة المساء، ثم همست بحذر):

- رأيته عصرا في الصالون يدخن، ثم صعد إلى غرفته في الطابق الثالث. لم يغادرها على حد علمي.

(ضيّق عينيه متسائلا بصوت خافت):

- متأكدة من ذلك؟

(أمالت رأسها قليلا واسترجعت منظر اللوحة الخشبية، ثم همست بثقة):

- مفتاح غرفته لم يكن في لوحة الاستقبال حين أغلقت السجلات في العاشرة.

(أطرق برأسه في تأمل مظلم، وزم شفتيه قبل أن يهمس بنبرة حادة):

- غ يا به أو حضوره في هذا الف ندق لم ي عد يب عث على الارتياح.

وصلا إلى الغرفة رقم ٣٧. كان الباب مفتوحا بمقدار شبرين، والريح الباردة تعصف من الداخل مسببة تمايل الستائر المخملية الزرقاء في حركة تشبه أذرعا شبحية تستغيث.

دفع رودولف الباب ببطء بحافة عصاه. المشهد في الداخل كان يوحي بمغادرة قسرية ومباغتة للغاية:

فوق المنضدة الخشبية، كوب شاي مثلج لم يكتمل شربه، ورواية إيطالية مفتوحة ومقلوبة على وجهها.

خزانة الملابس كانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها، وتتدلى منها بعض الأثواب الحريرية، بينما حقيبة جلدية كبيرة كانت ملقاة على السرير، نصف محتوياتها مبعثرة على الغطاء.

(اقترب رودولف من نافذة الشرفة المفتوحة ونظر إلى الأسفل نحو الزقاق الضيق الغارق بالمياه، ثم التفت نحو ستيفانيا بنبرة يتخللها التفكير):

- ماذا تلاحظين؟

(توقفت ستيفانيا عند الخزانة تتفحص الرفوف بعين خبيرة، ثم أجابت بصوت خفيض مدروس):

- معطفها الجلدي الرمادي غير موجود، وحقيبة يدها الصغيرة مفقودة. لكن مجوهراتها الذهبية ما زالت في الصندوق الصغير على التسريحة. هذا يعني شيئاً واحداً يا رودولف... من غادر هذه الغرفة لم يكن يبحث عن المال، ولم يغادر برغبته الكاملة.

اقترب رودولف من الفراش، وفجأة تجمدت عيناه. على وسادة السرير البيضاء، كانت هناك قطرة دماء صغيرة جافة، وبجانبها عود ثقاب نصف محترق يحمل علامة مقهى «إيل تريتون» في حي تراستيفيري؛ المقهى المشبوه الذي يتردد عليه تجار السوق السوداء ورجال فيتوريو دي لوكا.

(انقبض قلبه بشدة وتنفس بصعوبة، ثم وجه كلامه لستيفانيا بنبرة لا تحتمل التردد):

- اذهبي الآن بهدوء إلى غرفة كارلوس في الطابق العلوي. استخدمي نسختكِ الاحتياطية. لا تفتحي الباب بالكامل،

فقط تأكدي إن كان في سـريره أم أن جناحه فارغ هو الآخر.

(نظرت إليه بتوجس وشاركت شكوكها بصوت خافت):

- وإن وجدته مستيقظا؟

(رد عليها بقاطعية وهو يحثها على الإسراع):

- تذرعي بأنكِ تتفقدين أنابيب التدفئة بعد العاصـفة. تحركي بسرعة!

(وقف رودولف بمفرده وسط الغرفة ٣٧ بعد أن خرجت ستيفانيا كطيف صامت، أغمض عينيه واستنشق الهواء حائرا، ثم تحدث إلى نفسه بصوت شبيه بالهمس):

- عطر زهر البرتقال المر... هذا ليس عطر هيلين، إنه العطر الوحيد الذي تضـعه ماري! لماذا كذبت وقالت إنها وقفت على العتبة فقط؟ وما الذي كانت تبحث عنه هنا قبل أن تطرق بابي؟

(تطلع في أرجاء الغرفة المظلمة بأسى، وشعر بقلبه ينقبض وهو يتمتم بصوت خافت):

- لقد بدأ فندق ألبيرغو ديلي أومبري ينزلق نحو هاوية لا قرار لها.

الفصل الثاني: رسالة الفجر وظلال الشك

«حين يكتب لك شخص مفقود، فإما أنه يوجهك نحو حتفك، أو أنه يضع حبلا حول عنق غيره.»

كارلو غولدوني

مع تسلل أولى خيوط الفجر الرمادية، تسلم ماري رودولف رسالة تركتها هيلين تحمل تحذيرا صاعقا: "كارلوس في خطر". المواجهة الصباحية تكشف أولى شروخ المؤامرة.

مضت ساعات الليل الباقية كأنها دهر من الرصاص البارد. لم يذق رودولف للنوم طعماً، وظل جالساً في صالون جناحه، يتأمل رماد المدفأة الذي تحول إلى بقايا رمادية كئيبة، بينما استلقت ستيفانيا على الأريكة الجانبية مغمضة العينين بتوتر، تتظاهر بالغفوة وهي تحصي دقات ساعة الحائط الخشبية الكبيرة.

كانت عودة ستيفانيا من غرفة كارلوس في منتصف الليل محملة بمزيد من الالتباس؛ أخبرت رودولف أنها سمعت صوت خرير مياه يجري في مغسلة الحمام، ما أوحى بأن النزيل مستيقظ أو أنه ترك الصنبور مفتوحاً عن عمد لتغطية انسحابه عبر الشرفة المطلة على سطح المستودع القديم.

(تأملت ستيفانيا الممر الفارغ لبرهة واستجمعت أنفاسها، ثم أسرعت عائدة إلى رودولف في الغرفة رقم ٣٧ ووجدته يقف عند الخزانة يتفحص محتوياتها بقلق، لتهتمس له فور دخولها):

- وجدته نائمًا بعمق، يا سيدي.

(التفت إليها رودولف فور دخولها، وضـيّق عينيه في حيرة وتأمل مظلم ثم قال بصوت خفيض):

- نائم؟ غريب... حســنًا، ربما غادرت هيلين الفندق لســبب طارئ. لكن أن تترك الباب مفتوحًا؟ هذا لا يطمئنني.

(تطلعت ستيفانيا حولها بتوجس و شعرت ببرودة الخوف تطوق المكان، ثم أجابت بعد لحظة صمت وبصوت متوسل):

- حقًا أمر غير مريح يا ســيدي... هل يمكنني البقاء معك الليلة؟ لا أشعر بالأمان.

(تنهد رودولف بتعب وهز رأسه محاولا طمأنتها):

- لا داعي للخوف، كل شيء سيكون بخير.

(نظرت في عينيه برجاء وهمست بصوت خافت):

- أرجوك يا سيدي... فقط الليلة.

(أغمض عينيه لمستسلمًا للضغط ثم قال وهو يحثها على السير):

- حسنًا، تعالي. ولكن نلتزم بالهدوء، أنا مرهق للغاية.

(ابتسمت بخفة وألقت بنظرة دافئة، ثم قالت بنبرة ناعمة):

- لا تقلق، سأكون لطيفة كما اعتدت.

عادت معه إلى جناحه، وأغلق الباب خلفهما. جلسا معًا في صمت غامض، تتسلل إليه أصوات العاصفة من الخارج. حاول كل منهما تجاهل ما حدث، لكن فكرة اختفاء هيلين ظلت كظلٍ لا يفارقهما.

ومع حلول الساعة الخامسة والنصف صباحاً، بدأ ضوء الفجر الرمادي الشاحب ينزلق ببطء فوق قرميد روما، كاشفاً عن شوارع مغسولة بمطر لا يزال يهطل في رذاذ ناعم مستمر.

(سمع رودولف طرقاً خفيفاً، حذراً ورتيباً، فنهض بتثاقل وفرك وجهه المتعب، ثم تحدث بنبرة خافته وهو يفتح الباب):

- ماري؟ ماذا هناك في هذه الساعة؟

(وقفت ماري وعينا ها محمرتان من قلة النوم، و مدت يد ها اليمنى بظرف أبيض مغلق بإحكام ومبلل الأطراف خطت عليه كلمتان باللغة الإيطالية، ثم تمتمت بصوت خائف ومبتل بالدموع):

- هذا الرسالة... وجدتها للتو يا سيدي.

(تأمل رودولف الكلمات الخطية الأنيقة با لمداد الأزرق «إلى السيد رودولف مينيلي — شخصيا وعاجلاً»، وارتجفت حدقتاه في تفكير عميق، ثم تساءل بنبرة حذرة):

- من أين أتيتِ بهذا الظرف؟ ومن وضعه هنا؟

(أشارت بيد متوترة إلى أسفل الباب الرئيسي، وهمست والذعر يغلب على صوتها):

- كان مدفوعاً من تحت باب المدخل الخارجي للفندق... لم أرَ من وضعه يا سيدي، أقسم لك!

(أمسك رودولف بالظرف بحذر وسأل بصوت متحجر ينم عن إجهاد مضن):

- ما هذا يا ماري؟

(أجابت بصوت مرتجف يكاد لا يبين والذعر يسيطر عليها):

- وجدته يا سيدي قبل عشر دقائق... كان مدسوسا تحت البوابة الحديدية الخارجية المقفلة للمدخل الرئيسي، عند درجات الرخام المبتلة. لا أعلم من وضعه هناك، الشارع كان مقفرا تماما حين فتحت أقفال الصباح.

أخذ رودولف الظرف بيده التي لم تخفِ ارتعاشها الطفيف. شكرها بنبرة مقتضبة، وأغلق الباب بحزم.

(استوت ستيفانيا في جلستها فور سماع صوت القفل، وتطلعت بنظرات مضطربة معلقة بالرسالة ثم همست بحذر):

- لمن هذا الخط؟ هل هي...؟

لم يجبها رودولف.

جلس إلى مكتبه الصغير المصنوع من خشب الماهوجني، وتناول سكين فضية لفتح الرسائل، وشق حافة الظرف بحذر شديد خشية إتلاف الورقة الداخلية. أخرج الورقة المطوية.

كانت ورقة ذات رأسية مطبوعة تحمل شعار الفندق نفسه، ما أثبت أن كاتبها صاغها من داخل المبنى قبل اختفائه.

كانت السطور قصيرة، لكنها كُتبت بخط نسائي دقيق، تتضح في نهاياته سرعة اليد وعصبيتها.

(أمسك رودولف بالورقة وصار يقرأ سطورها بخط نسائي دقيق وبنبرة خافته يملؤها التوجس):

«إلى السيد رودولف، أعتذر عن مغادرتي المفاجئة وغير اللائقة؛ لقد طرأ أمر طارئ يهدد حياتي ولا يقبل التأجيل لحظة واحدة. أرجو ألا تقلقوا عليّ، وسأعود قريبا لأكشف لك بالوثائق كل ما كنت تسأل عنه منذ أسابيع. لكن، إن كان يهمك أمر هذا المكان... فرجاءً تأكد فورا من سلامة السيد كارلوس. إنه في خطر داهم قد ينفجر في أي لحظة... هيلين.»

سقط الصمت على الغرفة كثيفا وخانقا. ناول رودولف الرسالة لستيفانيا دون كلمة.

(قرأت ستيفانيا الرسالة مرتين، وانفرجت شفتاها ببطء عن دهشة ممزوجة بنفور مكتوم ثم تساءلت باستغراب):

- هيلين تحذر نا من أ جل كارلوس؟ كيف؟ متى نشأت بينهما هذه الرابطة؟

(مسح رودولف جبينه بيده الباردة وتنهد بعمق وهو يحلل موقفها):

- هيلين لم تكن مجرد صحفية شابة تبحث عن موضوع لكتابة مقال عن قصور روما المهملة كما ادعت حين حجزت الغرفة. كانت تبحث عن شيء محدد... وشيء ما قادها مباشرة إلى كارلوس.

(ضغطت ستيفانيا على حافة الورقة ونظرت إليه بحذر وهي تطرح شكوكها):

- أو أن كارلوس هو من نصب لها هذا الفخ لكي يبتزك أنت! تذكر يا رودولف... كارلوس وصل إلى هنا قبل شهر بجواز سفر صادر من باليرمو، وادعى أنه وسيط تجاري، لكنه يقضي نصف لياليه في محادثات هاتفية سرية من الكابينة العمومية في الممر السفلي!

(نهض رودولف بحزم أعاد إليه هيبته الأرستقراطية القديمة وعدّل وقفته بثقة):

- لن نتكهن أكثر من ذلك. سنواجهه الآن وجها لوجه. إن كانت هيلين قد تركت هذه الرسالة، فهذا يعني إما أن كارلوس ضحية، أو أنه العقل المدبر الذي يمسك برقابنا جميعا.

صعد الاثنان الدرج الخشبي العريض نحو الطابق الثالث، حيث تقع الغرفة رقم ٥٢؛ غرفة كارلوس المنعزلة في زاوية الممر الشرقي. كان الهواء في ذلك الطابق أشد برودة، وتفوح منه

رائحة العفونة الخفيفة الناتجة عن تسرب مياه الأمطار القديمة.

(وقف رودولف أمام الباب رقم ٥٢ ورفع قبضة يده لينادي بنبرة صارمة وهو يطرق ثلاث طرقات مدوية):

- سيد كارلوس! افتح الباب، هذا أنا رودولف.

لم يأت أي رد.

ساد صمت مطبق سوى صفير الرياح في زوايا السطح.

كرر رودولف الطرق بشدة أكبر، وحاول إدارة المقبض، لكن اللسان الحديدي للقفل كان مغلقا من الداخل مرتين.

(صاح رودولف بنبرة تحذيرية حازمة وهو يحاول تحريك المقبض بقوة):

- كارلوس! إن لم تجب سأفتح الباب بالمفتاح الرئيسي ونكسر السلسلة!

مرت قرابة عشرين ثانية حبست فيها الأنفاس، ثم تناهى إلى مسامعهما صوت خطوات ثقيلة ومترددة تجر أذيالها على الأرضية الخشبية بالداخل.

سُمع صوت فك السلسلة الحديدية، ثم تحرك القفل ببطء. انفتح الباب جزئيا بمقدار نصف شبر، ليطل منه وجه كارلوس. كان منظره صادما؛ وجهه شاحب كرماد الموقد، تحت عينيه هالات داكنة عميقة تشي بأنه لم ينم منذ أيام، وشعره الفاحم منكوش في فوضى غير مألوفة، وقميصه الأبيض مفتوح الياقة تكشف عن صدره المتصبب عرقا باردا رغم صقيع الصباح.

(تطلع كارلوس إليهما بعينين زائغتين يملؤهما الذعر والشبهات، ثم همس بنبرة متقطعة ومبحت الصوت):

- ماذا تريدون في هذه الساعة؟ هل حدث شيء؟

(قال كارلوس بنبرة متهدجة محشوة بالعداء المتوتر وهو يتشبث بباب الغرفة):

- ماذا هناك؟ ما كل هذا الإزعاج في الصباح الباكر؟

(تفرس رودولف في ملامحه بنظرة نافذة كالشفرة، وثبّت عينيه عليه بقلق مكتوم):

- هل أنت بخير يا كارلوس؟

(بلع كارلوس ريقه بصعوبة وحاول إخفاء ارتعاش شفتيه بابتسامة باهتة):

- نعم... نعم، بخير. مجرد وعكة صحية، ليلة سيئة ومطر لا يطاق.

(قاطعه رودولف ملوحاً بالظرف الأبيض وهو ينظر إلى عينيه بحدة):

- السيدة هيلين اختفت الليلة الماضية من غرفتها، وتركت لنا هذه الرسالة قبل ساعات قليلة.

(تغيرت ملامح كارلوس اتساعا بذعر حقيقي وتراجع خطوة إلى الوراء متلعثما):

- هيلين؟ وما... وما شأني أنا بهيلين؟

(تقدمت ستيفانيا خطوة نحو الباب وقالت بنبرة حادة كالسوط):

- شـــأنك أنها كتبت بالاســـم أنك في خطر داهم، وطلبت من رودولف أن يحميك! هل تشـــرح لنا لماذا تهتم نزيلة اختفت في جوف الليل بسلامتك الشخصية؟

(أطبق كارلوس شفتيه بقوة ونظر يمنة ويسرة في الممر الفارغ بذعر، ثم صاح بصوت مكتوم):

- هيلين حمقاء متطفلة! كانت تدس أنفها في أمور ســـتودي بحياتها وحياة من حولها! أخبرتها ألا تتدخل...

(حدق فيه رودولف بجمود وسأله بصوت صارم حاسم):

- أخبرتها ألا تتدخل في ماذا يا كارلوس؟ ومن هو الرجل الذي كان يلتقيها في الحديقة الخلفية تحت المطر؟

(ارتعش فك كارلوس وتراجع للداخل همّا بإغلاق الباب في وجههما بحدة):

- لســـت مدينا لكما بأي تفســـير! دعوني وشـــأني... حياتي ملكي و حدي، وإن كنتم حريصـــين على هذا الفندق

اللعين فاحزموا أمتعتكم واهربوا قبل أن تحرقه روما فوق رؤوسكم!

دفع الباب بقوة وأغلقه في وجهيهما، وأعاد القفل والسلسلة بصوت معدني حاسم.

(وقفت ستيفانيا مذهولة، وتطلعت إلى الباب المغلق بتوجس قبل أن تلتفت بنظرة قلقة):

- وما العمل الآن؟

(تأمل رود ولف الباب الخشبي المغلق، واستنشق الهواء الثقيل ثم تمتم بصوت عميق مملوء باليقين القاتم):

- إنه لا يهدد نا يا ستيفانيا... إنه مرعوب حتى النخاع. وشخص ما يمسك بخناقه وخناق هذا المكان.

(نظرت إليه بنشاط حذر متسائلة):

- وماذا ستفعل؟

(نظر إليها رودولف بنبرة صارمة وحاسمة):

- دعي ماري تراق به خطوة بخطوة، وأ نا ســـأذ هب لتف قد الحديقة الخلفية وممر ا سرداب. هناك حلقة مفقودة في هذه الســلســـلة، وقبل أن تغرب شمس اليوم، يجب أن أعرف لمن كان كارلوس يبيع أسرار هذا الفندق.

(نظر رودولف إلى ا لخارج مع شـــروق الشـــمس، ثم التـ فت نحو ستيفانيا بحيرة يحاول جمع شتات أفكاره):

- علينا أن نفهم ما يجري. هل تعرفين شيئا عن علاقات هيلين أو كارلوس مع أي أحد؟

(تأملت ســتيفانيا في الفراغ واســترجعت ذكرياتها الأخيرة مع النزلاء ثم أجابت بصوت خفيض):

- لا كثيرًا، لكني لاحظت أن هيلين كانت تلتقي بأشخاص غرباء أحيانًا، ثم تغادر بسرعة بعدها.

(نادى رودولف ماري وتفرس في ملامحها بنظرة حذرة وتساءل):

- ماري، هل لاحظتِ شيئا غير عادي مؤخرًا؟

(ترددت ماري لبرهة وعيناها معلقتان بالأرض ثم أجابت بصوت خائف مرتجف):

- في الحقيقة، قبل يومين رأيت الســيدة هيلين تتحدث مع رجل غريب في الحديقة الخلفية. لم أرَ وجهه بوضــوح، لكن بدا أنه لقاء جدي.

شـــكرها رودولف واتجه بنفســـه إلى الحديقة الخلفية. كل شيء هناك كان هادئًا... باستثناء بقايا سيجارة مطفأة حديثًا على الأرض، وكأن شخصًا ما كان يقف هناك ينتظر أحدًا.

(عاد إلى الداخل بنظرة مشدودة ووقف أمام ستيفانيا وهو ينظر إليها بجدية حازمة):

- هناك ما يُخفيه الجميع هنا. أحتاج أن أغادر لبعض الوقت لأتحقق من أمرٍ بنفسي.

(ثم خفض صوته واقترب منها يهمس بأمر صارم):

- أر يدك أن تبقي متيقظة، راقبي كارلوس واجمعي أي تفاصيل صغيرة... لا نريد أن يسبقنا أحد.

(أومأت بثقة ونظرت في عينيه بصلابة):

- حاضر يا سيدي، سأفعل ما يلزم.

(ابتســـم رودولف بخفة وتنفس بعمق مســـترخ يا أعصـــا به المشدودة):

- بعد هذه الليلة... أحتاج إلى حمام دافئ ينعشني، وتدليك يطرد التوتر من جسدي.

(أضاف مبتسمًا بمكر وعيناه تتفحصان المكان):

- وادعي ماري لتنضم إلينا، لا أريدها بعيدة عن أعيننا الليلة.

(تطلعت إليه ستيفانيا بنظرة استغراب تشوبها غير مكتومة، فرد عليها رودولف مهدئا إياها بنبرة دافئة):

- لا تقلقي، يا ستيفانيا... لا أحد يمكنه أن يأسر قلبي سواك.

ساد الصمت للحظة خلف الجدران العتيقة، كانت الرياح تعصف مجددًا. ورغم دفء الغرفة، شعر كلاهما أن بردًا غريبًا بدأ يتسلل من مكانٍ ما...

كأن الفندق نفسه بدأ يستيقظ على سرٍّ لم يُرِد أحد أن يُكشف.

كانت ستيفانيا تقف قرب نافذة الممر، تراقب المطر ينهمر في الخارج مثل ستارة من الدموع تغسل واجهات الفندق القديم.

كان الليل يوشك على الانسحاب، لكن شيئًا في الأجواء ظل يرفض الصباح. في داخلها، كانت عاصفة أخرى تشتعل تساؤلات متشابكة، شكوك تتسلل بين ضلوعها، وإحساس غامض بأن ما يجري داخل الفندق ليس مجرد سلسلة مصادفات.

كانت تنتظر ماري، التي استدعاها السيد رودولف. ورغم محاولاتها للتماسك، لم تستطع إخفاء قلقها الداخلي.

كان واضحًا لها أن طلبه لم يكن بريئًا.

(عضت ستيفانيا على شفتها وتطلعت إلى المطر تتساءل في سرها بحيرة):

- لماذا ماري تحديدًا؟

(ابتسمت ابتسامة مشوبة بالمرارة وهمست لنفسها):

- ربما أعجبته... ولم لا؟

(دفعت الفكرة عن رأسها وطمأنت نفسها بصوت خافت):

- لا تقلقي يا ستيفانيا... السيد رودولف لا يُخدع بسهولة.

حين دخلت ماري، بدت متوترة بعض الشيء، لكنها أخفت توترها بابتسامة مهنية.

(حاولت ستيفانيا السيطرة على نبرتها وقالت ببرود مصطنع):

- لا تقلقي يا ماري، السيد رودولف فقط بحاجة إلى بعض الهدوء بعد ليلةٍ مليئة بالتحديات. نحن هنا لنوفر له ذلك، لا أكثر.

تحركتا معًا عبر الممر نحو غرفة التدليك الخاصة، حيث كان رودولف ينتظرهما مستلقيًا بهدوء مريب.

الشموع كانت تضيء المكان بضوء ذهبيّ ناعم، وعبق الزيوت العطرية يملأ الأجواء، فيما كان صوت المطر في الخارج يشكّل خلفية موسيقية حزينة.

على الطاولة الجانبية، كأس نبيذ نصف ممتلئ. ورودولف، كما هو دائمًا، متكئ بهدوء وثقة، نظراته تتحرك ببطء بين الاثنتين.

بدأت ستيفانيا تدلك كتفيه بخبرة، فيما كانت ماري تتابع حركاتها بعناية.

الزمن في تلك اللحظة بدا وكأنه توقف؛ مزيج من السكينة والتوتر يملأ المكان.

(رفع رودولف رأسه قليلًا ونظر إلى ستيفاذيا بنبرة واثقة قاطعة):

- ماري... ابقي. ستيفانيا، يمكنك الخروج لبعض الوقت.

(توقفت ستيفانيا عن الحركة ونظرت إليه طويلاً بابتسامة مصطنعة تحفي الغضب):

- كما تشاء يا سيدي.

خرجت من الغرفة وهي تحاول أن تكتم الغضب الذي يتصاعد في داخلها. في الداخل، كانت ماري واقفة في حيرة.

(اقترب رودولف منها بخطوات بطيئة وهمس لها بنبرة دافئة):

تعالي يا ماري... لقد افتقدتك.

(ترددت ماري وتراجعت خطوة للوراء بخوف وقلق):

- سيدي... ربما تعود ستيفانيا في أي لحظة.

(ضحك بخفوت وهو يطمئنها):

- لا تقلقي، لن تعود قبل أن أطلبها.

اقترب أكثر، صوته صار أشبه بالهمس. لحظات قصيرة كانت كفيلة بأن تذوب فيها الحدود بين التوتر والرغبة. قبّل يدها برفق، ثم نظر في عينيها.

(تطلع في عينيها وقال بصوت خافت وناعم):

- لا تفكّري بشيء... هذه اللحظة لنا فقط.

انجرفت ماري معه رغم الخوف الذي كان ينهش عقلها. كانت تشعر بالراحة بجانبه، لكنها أيضًا تخشى العواقب.

هو رجل ذو نفوذ وسحر، لكنها خادمة بسيطة... وداخلها صراع بين القلب والعقل.

(قالت بصوت مرتجف ومليء بالتردد):

- أنت دائمًا تعرف كيف تطفئ النار في داخلي... لكنني أخشى أن يكون هذا مجرد هروب من الواقع.

(أجابها بابتسامة غامضة وهمس قرب أذنها):

الهروب أحيانًا هو الحقيقة الوحيدة التي نملكها.

في الخارج، كانت ستيفانيا تمشي في الممر ذهابًا وإيابًا. الغيرة كانت تنهشها، لكنها كانت تخفيها خلف وجهٍ جامد. كانت تعرف أن ماري ليست مجرد موظفة عادية، وأن قلب رودولف — رغم غموضه — ربما بدأ يضعف أمامها. ورغم ذلك، لم يكن بوسعها سوى الانتظار.

بعد دقائق طويلة، عادت إلى الغرفة. وجدت ماري عادت إلى موقفها المهني، ورودولف يجلس مسترخيًا بنظرات أكثر صفاء.

(ابتسم رودولف ونظر إليهما برضا):

- شكرًا لكما، كنتما رائعتين كالعادة.

(التفت إلى ماري وأضاف بجدية غير متوقعة):

- أريد التحدث معكِ بشيء مهم، على انفراد.

نظرت ماري إلى ستيفانيا بتردد، فأومأت لها الأخيرة برأسها.

(قالت ستيفانيا بنبرة هادئة متماسكة):

- سأكون في الخارج.

خرجت ستيفانيا ببطء، تاركة المجال بينهما، فيما بدأ الجو في الغرفة يثقل بالصمت.

(جلس رودولف وشبك أصابعه أمامه متسائلا بجدية واهتمام):

- ماري، كنت أفكر كثيرًا... بشأن طفلك. ما خططك للمستقبل؟

اتسعت عيناها بدهشة. لم تتوقع منه هذا السؤال. ثم تنفست بعمق، وكأنها تستعد لفتح جرحٍ قديم.

صوته الخافت كان يشجعها على الكلام، فبدأت الحكاية تتكشف...

وُلدت ماري في مدينة صغيرة تدعى "أوستي"، نشأت وسط عائلة متواضعة، أم حنونة وأب بسيط يعمل في الميناء. كانت الابنة الوحيدة، تحمل أحلامًا تفوق حجم مدينتها الصغيرة.

وحين بلغت الثامنة عشرة، دخل حياتها رجل غريب من روما يُدعى داليرو ، وسيم، مغامر، يتحدث كثيرًا عن الحرية والحب.

أحبته بجنون، إلى حد أنها هربت معه إلى العاصمة. لكن حلمها الجميل تحوّل سريعًا إلى كابوس.

عاشت معه ثلاث سنوات من الفوضى، تنتقلا بين شقق صغيرة، ونوادٍ ليلية، وحفلات صاخبة.

ثم جاء اليوم الذي انهار فيه كل شيء. حين تركها داليرو بعد أن تورط في مشكلة مالية مع رجال خطرين.

وفي ليلة ممطرة كليالي الفندق القديم، وجدها رودولف مرمية في شارعٍ مظلم، مضرجة بالدماء بعد اعتداء جنسي وحشي.

لم يعرف لماذا فعل ذلك، لكنه حملها إلى فندقه القديم، اعتنى بها بنفسه، ووفر لها عملًا ومأوى.

منذ ذلك اليوم، بدأت حياة جديدة. ومع مرور الوقت، تحول الامتنان إلى مشاعر أعمق... لكنها كانت تعرف أن الاقتراب من رودولف يشبه اللعب بالنار.

(صمت رودولف طويلًا ثم نظر إليها بتعاطف وقلق دفين):

- أنتِ أقوى مما تظنين، يا ماري. لقد نجوتِ من أشياء كان يمكن أن تنهي حياة أي امرأة. لكن المستقبل لا ينتظر... وأنا أحتاجكِ أن تكوني جاهزة لأي شيء قادم.

في تلك اللحظة، كان وجهه يعكس قلقًا دفينًا، كما لو أنه يرى الخطر يقترب ببطء.

في الصباح التالي، كان رودولف يقف أمام نافذة غرفته، عيونه معلقة بصفوف الأشجار التي تتمايل تحت المطر.
بين يديه الرسالة التي تركتها هيلين. قرأها عشرات المرات، لكنه لم يصدقها. كان يشعر أن وراء كلماتها المطمئنة شيئًا آخر، أكثر ظلامًا.

«كارلوس في خطر...»

كانت الجملة الوحيدة التي تتردد في رأسه بلا توقف.

(دخلت ستيفانيا الغرفة بابتسامة خفيفة تخفي توترًا واضحًا):

- هل قرأت الرسالة؟ هل هناك جديد؟

(أجابها وهو ينظر من النافذة بشرود):

- نعم، قرأتها. تقول إنها غادرت لأمرٍ عاجل... لكنها حذرتنا من شيء.

(التفت إليها بعينين قلقتين مضطربتين):

كارلوس. لا أرتاح له، ولا أثق بأن ما نراه هو كل الحقيقة.

(اقتربت منه بخطوات بطيئة وتساءلت بحذر):

- تعتقد أنه متورط؟

(هز رأسه بتفكير غميق):

لا أعلم... لكن ما حدث تلك الليلة لم يكن صدفة. شيء ما كان مُدبّرًا بعناية.

ساد الصمت بينهما للحظات، لم يسمع فيه سوى صوت المطر وضربات الساعة القديمة على الجدار.

ولكسر هذا الصمت، بدأ السرد الداخلي يتسلل بين السطور...

في رأس ستيفانيا، تعود الصور الأولى للقاء الذي جمعها برودولف منذ سنوات. كانت شابة في التاسعة عشرة، قادمة من بلدة صغيرة بين الجبال شمال إيطاليا.

تعمل في مطعم متواضع حين التقت به للمرة الأولى، رجل خمسيني ذو حضور طاغٍ، عيناه رماديتان كغيم ما قبل العاصفة، وصوته يحمل سلطة لا تُقاوَم.

كان يبدو كمن يعرف أكثر مما يقول. حين عرض عليها العمل في فندقه، لم تتردد. لكنها لم تكن تعلم أنها تدخل إلى عالمٍ مختلف...

عالم لا تحكمه القوانين بل الأسرار.

كانت تستشعر دائمًا شيئًا غامضًا في نبرته، في نظراته التي تُطيل التحديق كأنه يحاول قراءة ما وراء الروح.

ورغم المسافة التي كان يحافظ عليها، كانت تنجذب نحوه بقوة غامضة لا تفسير لها.

مرت السنوات، وتحوّل العمل إلى علاقة. ثم ذات مساء، بعد أن انتهت من تنظيف أحد الأجنحة المهجورة، دخل هو الغرفة دون إنذار.

(تطلع في عينيها الغارقتين في الظلال، وتحدث ببطء بصوت مثقل بالأسرار):

- ستيفانيا... هناك شيء فيكِ يجعلني أشعر وكأنني أعرفك منذ زمن بعيد... ربما من حياة أخرى.

تجمدت الكلمات في حلقها. لم تفهم، لكنها شعرت بحرارة غريبة تسري في جسدها.

(اقترب منها ووضع يده على كتفها بلطف ثم همس بصوت خافت):

- أنتِ لستِ مجرد موظفة عندي، ستيفانيا. أنتِ... الإرث الذي كنت أبحث عنه. وريثة عالمٍ لا يفهمه أحد سواكِ.

كان صوته يحمل شيئًا من الوعد والتهديد في آن واحد.

منذ تلك اللحظة، لم تعد حياتها كما كانت. لم تعد فقط امرأة تعمل في الفندق... بل أصبحت جزءًا من لغز أكبر. ذلك الفندق، الذي بدا في الخارج كحجرٍ صامت في مدينة نائمة، كان يخفي بين جدرانه عالما غامضًا من العلاقات القديمة، الأسرار المدفونة، والأقدار المتشابكة.

وكل من يدخل إليه، لا يخرج كما كان.

ستيفانيا لم تعد متأكدة إن كانت تحب رودولف...

أم تخافه.

ورودولف نفسه كان يعيش على حافة الخطر، بين الماضي الذي يطارده، والمستقبل الذي يوشك أن ينفجر أمامه. أما ماري، فقد بدأت تدرك أن حياتها داخل هذا الفندق ليست مجرد صدفة... وأن هيلين، التي اختفت، ربما كانت تعرف شيئًا لا يجب أن يُعرف. كان المطر لا يزال يهطل...

والفندق، كما لو أنه يتنفس بهدوء، ينتظر الليلة القادمة حين تبدأ اللعبة الحقيقية.

الفصل الثالث: وصول الغرباء في ضباب تيفيري

«لا يأتي أحد إلى هذا الفندق مصادفة؛ فإما أنه يبحث عن شيء دفنه الأجداد، أو يهرب من جريمة لم تسقط بالتقادم.»

من مذكرات نزيل سابق

وصول عائلة فالكوني القادمة من فرنسا عبر فلورنسا يقلب موازين الفندق؛ لوسيا ابنة السبعة عشر ربيعاً تبدي فضولاً غير بريء، بينما الأب فرانشيسكو يراقب الجدران بعيني وريث يطالب بحقه المسلوب.

بحلول منتصف الظهيرة، انقشع رذاذ المطر مؤقتا ليحل محله ضباب كثيف، رمادي ورطب، زحف من ضفاف نهر التيبر ليلف أزقة روما التاريخية برداء كئيب.

بدت أعمدة الرخام في ساحة نافونا كأنها أشباح عملاقة تطفو فوق بحر من البخار، بينما تلاشت أصوات العربات وأبواق السيارات الحديثة في صدى مكتوم.

في باحة الفندق الحصوية، توقفت سيارة سوداء فارهة من طراز «ألفا روميو» كلاسيكية تحمل لوحات تسجيل فلورنسية. ترجل منها السائق ليفتح الباب الخلفي باحترام شديد.

نزل أولا رجل في أوائل الخمسينيات من عمره، فارع الطول، ذو ملامح أرستقراطية وقورة يشوبها إرهاق السفر، يرتدي معطفا رماديا ثقيلا من صوف الكشمير وقبعة فيدورا كلاسيكية. كان هذا السيد فرانشيسكو فالكوني، تاجر التحف العتيقة وسليل إحدى أقدم العائلات البورجوازية في توسكانا.

تبعته سيدة أنيقة في أوائل الأربعينيات، تدعى جوليا، تفيض عيناها بذكاء حاد ونظرات يقظة لا تفوت شاردة ولا واردة.

ثم ترجل شابان: ماركو، الابن الأكبر ذو الثلاثة وعشرين عاما، طويل القامة وممتلئ بالثقة المفرطة والميل للمغامرة، وشقيقته الصغرى لوسيا.

كانت لوسيا في السابعة عشرة من عمرها، لكنها كانت تبدو أكبر من سنها بكثير؛ وجه دقيق كأيقونة عصر النهضة، وعينان عسليتان واسعتان تتقد فيهما شعلة من التحدي والفضول الجامح الذي لا يعرف الخوف، وشعر كستنائي منسدل على كتفي معطفها العنابي الأنيق.

كان رودولف يقف خلف الستائر الشفافة لنافذة مكتبه في بهو الاستقبال يراقب وصولهم بوجوم.
كانت حواسه كلها مستنفرة منذ أحداث الفجر. نزلاء جدد في هذا التوقيت بالذات؟
في خضم اختفاء هيلين وذعر كارلوس؟
خرج إلى البهو بابتسامته المهنية المتقنة التي صقلتها عقود من استقبال الأمراء والدبلوماسيين، وتقدم نحوهم بخطوات رصينة:

(ابتسم رودولف بمهنية متقنة وهو يتقدم بخطوات رصينة ونبرة مرحبة):

- مرحبا بكم في فندق البيرغو ديلي أومبري. يشرفنا حلولكم بين جنبات هذا المبنى التاريخي. أنا رودولف مينيلي، مالك الفندق.

تقدم السيد فرانشيسكو وصافحه بقبضة قوية دافئة، لكن عينيه كانتا تطوفان في أرجاء البهو: تفحصتا الثريات الكريستالية، والأعمدة الرخامية، وتوقفتا طويلا عند اللوحة الزيتية الضخمة المعلقة خلف مكتب الاستقبال؛ لوحة قديمة تعود لمدرسة كارافاجيو تصور القديس سيباستيان وهو مثخن بالسهام.

(صافحه فرانشيسكو بقبضة قوية ونظر حوله بتمعن مشيدا بالمكان):

- شكرا لك يا سيد مينيلي، قضينا رحلة شاقة بالقطار والسيارة من باريس عبر فلورنسا. هذا المكان... يبدو أنه يحتفظ بروحه الأصلية كما سمعت عنه تماما. التفاصيل المعمارية هنا لا مثيل لها.

(رد عليه رودولف بنبرة حذرة وقورة):

- نحاول الحفاظ على التاريخ قدر استطاعتنا يا سيدي. التاريخ هو أثمن ما نملك في روما.

(تدخلت لوسيا بجرأة عفوية وابتسامة رقيقة تساءلت بمكر):

- وهل التاريخ هنا آمن يا سيد مينيلي؟ يقولون إن الفنادق العتيقة في روما تحتفظ بأسرار نزلائها حتى بعد رحيلهم بعقود!

ارتعش جفن رودولف الأيسر ارتعاشه خفيفة لم يلاحظها سوى جوليا، لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة وأجاب:

(استعاد رود ولف رباطة جأشه بسرعة وأجاب بابتسامة غامضة):

- الأسرار تصنع سحر المكان يا آنستي، لكننا نحرص دوما على أن ينعم ضيوفنا بالأمان التام والراحة المطلقة. أنصحكِ بألا تصدقي كل ما ترويه حكايات المقاهي الرومانية.

تقدمت ستيفانيا لتتولى ترتيبات الإقامة. سجلت بيانات العائلة في السجل الجلدي الكبير: ثلاث غرف متجاورة في الطابق الأول، الأجنحة رقم ١٢ و١٤ و١٥.

بينما كان ماركو يتكئ على مكتب الاستقبال ويتبادل النظرات المباشرة مع ستيفانيا بنوع من الغزل الصريح الذي لم تبدِ نحوه انزعاجاً ظاهراً.

كانت لوسيا قد ابتعدت خطوات نحو السلم الخشبي الحلزوني العريض.

وقفت الفتاة عند قاعدة السلم، تلمس درابزينه النحاسي المصقول، ورفعت بصرها نحو الطوابق العليا.

في تلك اللحظة بالذات، في عتمة الطابق الثالث، لمحْت ظلاً ينسحب بسرعة من فوق الدرابزين.

كان رجلاً يرتدي سترة داكنة، وقف لثوان يتطلع نحو البهو بعينين مذعورتين قبل أن يختفي خلف الأعمدة.

كان ذلك كارلوس.

التقطت لوسيا تلك النظرة في لمح البصر؛ نظرة رجل مطارد تحرسه الكوابيس. ولمعت في عينيها الفضوليتين ومضة إصرار جعلتها تقطع عهداً في سرها بالوصول إلى حقيقة ذلك الشبح القابع في الأعلى.

(ابتسم ماركو متكئاً على المكتب وهو يتبادل النظرات مع ستيفانيا، وتحدث بنبرة غزل صريح):

- يبدو أن رو ما تخبئ أجمل ما فيها خلف هذه الجدران العتيقة.

(قابلته ستيفانيا بابتسامة مهنية دون انزعاج، وردت بهدوء وهي تدون بياناتهم في السجل):

- نتمنى أن تجد إقامتك هنا ممتعة كما تتوقع، سيد ماركو.

(وقفت لوسيا عند قاعدة السلم الخشبي تلمس الدرابزين النحاسي، ولمحت ظلاً ينسحب بسرعة في الطابق الثالث، فحدثت نفسها في سرها بفضول يملؤه الإصرار):

- من هذا الرجل الذي يراقبنا وكأن الكوابيس تطارده؟ يجب أن أعرف حقيقة هذا الشبح القابع في الأعلى.

في تلك الأثناء، صعدت ماري حاملة حقائب السيدة جوليا ولوسيا.

حين مرت ماري بجانب لوسيا، انتبهت الفتاة إلى أن الخادمة كانت تبدو مجهدة بشدة، وتخفي بين أصابعها منديلاً صغيرا تمسح به دمعاً خفياً.

(سألت لوسيا بصوت منخفض لا يسمعه أحد):

- هل أنتِ بخير؟

(ارتبكت ماري وخفضت رأسها بسرعة وأجابت):

- نعم يا آنستي... مجرد صداع من البرد. أهلاً بكِ في الفندق.

لكن لوسيا لاحظت أن ماري، وهي تلتفت لتصعد، ألقت نظرة رعب لا لبس فيها نحو الممر المؤدي لمكتب رودولف.
دخلت العائلة أجنحتها، و ساد سكون خادع في أرجاء الفندق.
لكن خلف الأبواب المغلقة، كانت النيران تستعر تحت الرماد.

في الجناح رقم ١٢، وقف السيد فرانشيسكو أمام زوجته جوليا، وأغلق الباب الداخلي بإحكام، ثم أخرج من جيب معطفه الداخلي ورقة صفراء مطوية بعناية؛ كانت نسخة من وثيقة ملكية قديمة مؤرخة في تشرين الأول ١٩٤٤.

(همس لزوجته بصوت مشحون بالمرارة):

- إنه هو... رودولف مينيلي بذاته. الرجل الذي تسلم أمانات عائلة فالكوني قبل دخول القوات المتحالفة إلى روما. اللوحة وسجلات الودائع لا تزال هنا في هذا المبنى.

(ردت جوليا بقلق):

- تصرف بحكمة يا فرانشيسكو. الرجل يبدو خطيرا، ورأيت الشك في عينيه منذ اللحظة الأولى. وابنتك لوسيا تفرط في الفضول، لا نريد أن نصيبها بمكروه.

(أجاب فرانشيسكو بحزم وإصرار):

- لوسيا ذكية كالثعلب، لكن عليّ أن أتحدث إلى رودولف الليلة قبل أن تنكشف نوايانا.

وفي الطرف الآخر من الفندق، كان رودولف يقف مع ستيفانيا في غرفة المؤن المعزولة خلف المطبخ.

(فركت ستيفانيا ذراعيها من البرد ونظرت إلى رودولف بقلق وقالت):

- هؤلاء النزلاء لا يريحونني يا رودولف. فرانشيسكو فالكوني ليس مجرد تاجر تحف، اسمه كان مدرجا في سجلات الأرشيف المخبأة في القبو!

(أمسك رودولف بمفتاح نحاسي ضخم وأجابها بثقة يشوبها التوتر):

- أعلم ذلك جيدا. عائلة فالكوني تبحث عن لوحة رافائيلينو «مادونا البكاء». والآن، ومع اختفاء هيلين وتخبط كارلوس، أصبحت الخيوط كلها مشدودة إلى عنقي. إن تحرك أحدهم خطوة واحدة خاطئة الليلة... ستغرق روما كلها في فضيحة لن ترحم أحدا.

في الخارج، كان رودولف يتفقد الممرات بصحبة ستيفانيا، يحمل مصباحًا صغيرًا يبدد الظلال.

كانت خطواتهما بطيئة وقلقة.

وعندما اقتربا من المدخل الرئيسي لإغلاقه، ظهر كارلوس فجأة من بين الظلال، كأن الأرض لفظته من باطنها.

(توقف رودولف بحدة وصاح):

-أين كنت يا كارلوس؟! غبت يومين دون أثر، وهيلين ما زالت مفقودة!

(نظر إليه كارلوس بعينين متعبتين وقال ببرود):

- وما علاقتي بذلك؟
- كيف لا تكون لك علاقة؟ لقد ذكرتك هيلين في رسالتها الأخيرة قبل اختفائها!

(ابتسم كارلوس بسخرية):

- رسائل النساء... دائمًا ما تترك وراءها المشاكل. لم أعد أعبأ بها.

(تقدمت ستيفانيا خطوة، صوتها صار حادًا):

- لكن هذه الرسالة مختلفة، إنها تتعلق بسلامة الجميع!
- لا يهم، أريد فقط أن أعيش حياتي بعيدًا عن هذه الفوضى.

ساد صمت ثقيل، ثلاثتهم واقفون وسط الممر الخافت الإضاءة، نظراتهم تتشابك في توتر واضح.

(قال رودولف بنبرة منخفضة لكن حازمة):

- إذا كنت تعرف شيئًا يا كارلوس، فعليك أن تقوله الآن. نحن نحاول إنقاذ حياة إنسان.

لكن كارلوس أدار ظهره ومضى نحو غرفته دون كلمة أخرى.

في تلك اللحظة، لم يلحظ أحد أن لوسيا كانت تراقبهم من أعلى الدرج، تتبع بعينيها كل حركة، وكل كلمة.

بعد دقائق، حين عاد كارلوس إلى غرفته وأغلق الباب خلفه، سمع حركة خفيفة خلفه.

التفت فجأة، ليجد لوسيا أمامه.

(كانت عيونها مزيجًا من الجرأة والقلق، وصوتها هادئ لكنه قاطع):

- سمعت كل شيء، يا سيد كارلوس.

سحب كارلوس نفساً عميقاً، يصارع لاستعادة رباطة جأشه المبعثرة. هتف بصوتٍ حاول إضفاء القوة عليه:

- لا أريد أن أكون جزءا من هذه الدوامة. اختفاء هيلين ليس مشكلتي. ولكن من انتي لتتحدثي معي وكيف دخلتي غرفتي.

لكن لوسيا لم تتأثر بانفعاله. قالت بنبرة حازمة:

- لكنكم جميعا عالقون هنا... يجب أن نساند بعضنا البعض.

تحركت ببطء نحو نافذة الغرفة، وأشاحت بنظرها نحو الخارج حيث كان ظلام الليل يبتلع معالم الفندق، ثم التفتت إليه متابعة بنظرة ثاقبة:

- أنت تخفي شيئا، يمكنني الشعور بذلك. هناك سر قابع في أعماقك يربطك بهيلين.

ارتبك كارلوس وتلعثم في كلماته:

- آه... لا، لا يوجد شيء. أنا فقط أختنق! أريد أن أكون حرا. كل ما حولي يشعرني بالانقباض، وكأنني محاصر في زنزانة تضيق جدرانها عليّ. أخشى أن أبقى سجينا هنا للأبد... أحتاج إلى الهرب، لم يعد بوسعي البقاء".

لم تتراجع لو سيا، بل تقدمت بخطوة وئيدة نحوه لتشعل شرارة التوتر الواضحة بينهما. همست بصوت يحمل ثقلاً جديداً:

- الحرية ليست في الهروب يا كارلوس، بل في مواجهة الحقيقة.

وبلا مقدمات، تقلصت المسافة بينهما. في لحظة بدا وكأن الزمن قد تجمد فيها، احتضنته بقوة، ليلتصق جسدها بجسده في تلامس أذاب الجليد الخفي.

كانت استجابته فورية؛ تسارع نبض قلبه بعنف، وسرت حرارة جسدها في أوصاله وكأنها تخترق أسواره الدفاعية.

اختلطت بداخله مشاعر الخوف والقلق مع فيضان عارم من الانجذاب. ذاب كل شيء حولهما، ولم يبقَ سوى ذلك المزيج المشوش من الرغبة والتوتر.

التقت الأعين، محملة بوعيد صامت لما سيؤول إليه هذا القرب.

همس كارلوس، وعيناه تتأملان ملامحها في حيرة وقلق، وكأن كل خلية فيه تحاول استيعاب ما يجري:

- ما الذي تفعلينه؟ عليكِ أن تهدئي.

رسمت لوسيا ابتسامة هادئة على شفتيها، لكن كلماتها كانت تبطن سحرا خفيا، سحرا غمر كارلوس براحة مفاجئة بين ذراعيها، ليسكن ضجيج العالم من حوله.

- أحاول مساعدتك، كارلوس... نحن بحاجة إلى بعضنا البعض.، بالإضافة الى ذلك فأني معجبة بك وبجسدك وبشعرك الطويل هذا.

تلاقت أيديهما في صمت أبلغ من الكلمات. مع كل ثانية تمر، كانت الثقة تترسخ، والدفء يتسلل إلى أعماقهما.

سرت المغامرة بينهما كتيار كهربائي، ليبدأ القلق بشأن هيلين بالتلاشي في خلفية المشهد. توقف الزمن ليتيح لهما ترك كل شيء خلفهما في تلك اللحظة المشحونة بالجاذبية المطلقة.

وبينما كانا يغرقان في عزلتهما، كان الفندق الغارق في العتمة يخبئ أسرارا تنتظر من يكشفها.

لكن داخل تلك الغرفة، تدفقت المشاعر كطوفان لا يرحم، وتلاقت شفاههما في قبلة حملت كل عبق الشغف والتوتر. لم

يقطع عتمة الغرفة سوى خيوط باهتة من الضوء تسللت عبر الستائر، لتضفي على المشهد هالة من الغموض والإثارة.

انفصلت لوسيا عنه ببطء، وتأملت عينيه العميقتين وكأنها تبحث عن إجابة لسؤال لم يُنطق بعد. سألته بلطف، رغم أن رنة صوتها كانت تحمل طاقة تفوق مجرد الكلمات:

- لماذا تخشى المواجهة، كارلوس؟

رد بصوت لاهث:

- لأنني لا أريد الغرق في هذه الفوضى... لكنكِ، تجعلينني أشعر بما نسيته منذ زمن طويل.

انحنت لوسيا لتطبع قبلات رقيقة على رقبته، مما أرسل قشعريرة طاقة حارقة في أنحاء جسده.
تسارعت أنفاسه، متخبطا في محاولة أخيرة لمقاومة الاستسلام لهذا الشعور الطاغي، لكنه فشل.

تتابعت القبلات، وكل قبلة كانت توقع عهدا جديدا من الرغبة المتصاعدة.

في تلك اللحظة، تلاشى العالم بأسره ولم يبقَ سواهما.
وفي لحظة جرأة خاطفة، مدت لوسيا يدها وفكت أزرار قميصها، ليدق قلبه طبولا مجنونة في صدره.
كانت تشعر بحرارة جسده المتقد، وكل لمسة من أطراف أصابعها المستكشفة كانت تترجم رغبة ملحة تزيد من اشتعال اللحظة.

سحب كارلوس نفسا عميقا أخيرا، قبل أن يلقي بأسلحته ويستسلم لنداء غرائزه.
طوق خصرها بقوة، وساحبها نحوه ليغرقا معا في حميمية تامة. مع كل لمسة، كان لهيب الأجواء يستعر حولهما، لتتحول القبلات إلى نيران من الشغف، بينما كانت لوسيا تدفعه بخطوات متعثرة، ومحملة بالرغبة، نحو السرير.

في اللحظة التي احتدمت فيها الأحاسيس وتمازجت مع نسمات الليل الباردة،

كانت لوسيا وكارلوس يعيشان لحظات من الشغف العميق.

ولكن! في زاوية مظلمة من الغرفة! كانت هناك عيون تراقبهما بحدة وكره، معلنة عن حضورها الغامض.

إنها ماري! الخادمة الطيبة الودودة التي لا يعرفها أحد إلا بابتسامتها المشرقة وتعاملها اللطيف.

لكن تلك الليلة، مع النظرة القاتمة التي ارتسمت على وجهها، بدا وكأنها شخص آخر تمامًا، شخص مريب ومخيف.

(توقف كارلوس فجأة، مشوشًا ومرتجفًا، قلبه يطير من مكانه، وعيناه متسعتان في دهشة لا تصدق. بصوت يحمل الارتباك):

- ماري... ماذا تفعلين هنا؟

(ابتسمت ماري ابتسامة خبيثة، مليئة بالغموض، وبصوت خافت لكن حاد قالت):

- كارلوس، لم أكن أتوقع أن أراك في مثل هذا الوضع... في لحظة كهذه.

لوسيا، التي كانت بجانب كارلوس وتحاول ارتداء ملابسها على عجل، تشعر بشيء غريب يتسلل إلى قلبها.

(تساءلت لوسيا وعينيها مليئة بالقلق والخوف):

- من هي؟ وكيف تعرفها؟

(ردت ماري بغموض):

- نعم، لدينا ماضٍ مشترك، لكنه سيكون شيئًا من الماضي الآن. لدينا اتفاق سري سأكشفه للجميع.

(تقدمت ماري خطوة نحو كارلوس، وقالت بنبرة حادة):

- لقد حذرتك مسبقًا، كارلوس. لا تعبث معي.

(حاول كارلوس التحدث بهدوء):

- ماري، يجب أن نتحدث بوضوح. أرجوكِ لا تتسرعي في اتخاذ قرار.

(نظرت ماري بنظرة مليئة بالغموض، وقالت):

- هناك أسرار، لا يمكنني الاحتفاظ بها بعد الآن.

في تلك اللحظة، كانت لوسيا تراقب هذا التفاعل عن كثب، عيونها متسعة ومليئة با لدهشة، محاولتها لفهم العلا قة الغامضة بين كارلوس وماري جعلتها تشعر وكأنها تسير في متاهة من الأسئلة التي لا نهاية لها.

كان كل شيء في الفندق يبدو غريبًا، وكل حركة وكل كلمة كانت تحمل في طياتها معانٍ غير مرئية.

أدركت تمامًا أن هذا المكان يخفي الكثير من الأسرار التي لن تُكشف بسهولة.

كان هناك شيء مظلم يتربص خلف الجدران، علاقات معقدة وأسرار غائرة تنتظر اللحظة المناسبة لتظهر.

الفصل الرابع: شراك الصالون الأحمر

«في لعبة الأسرار، المرأة التي تبتسم لك بود في المساء قد تكون هي ذاتها من تقيس عمق قبرك في الصباح.»

ليوناردو شاشا

ستيفانيا تستدرج الشاب ماركو فالكوني إلى الصالون الأحمر لكشف نوايا والده، بينما يطلب رودولف جلسة تدليك غير بريئة في محاولة لانتزاع اعتراف من الخادمة ماري.

هبط الليل مجددا على روما، حاملاً معه موجة صقيع جديدة جعلت نوافذ الفندق تهتز بعنف.

في الصالون الأحمر بالطابق الأرضي، حيث اكتست الجدران بالمخمل الدموي وعُلقت مرايا مذهبة ضخمة تعكس لهب الشموع المتراقصة، كانت ستيفانيا تجلس بمفردها على أريكة وثيرة، ترتدي فستانا أسود طويلاً من الحرير يبرز رشاقتها الأنيقة، وبيدها كأس صغيرة من مشروب الليمونشيلو المثلج.

كانت تدرك أن ماركو فالكوني لن يتأخر عن النزول.

شاب في مقتبل العمر، نشأ في رخاء باريس وفلورنسا، تحركه الرغبة في إثبات فحولته وا صطياد المغامرات العابرة؛ صيد سهل لامرأة تدربت لسنوات في مدرسة رودولف على قراءة الضعف البشري واستغلاله.

وبالفعل، لم تمض عشر دقائق حتى ظهر ماركو عند مدخل الصالون. كان قد خلع معطف السفر وارتدى سترة صوفية داكنة، وشعره البني مصفف بعناية.

(حين وقعت عيناه على ستيفانيا جالسة في تلك الزاوية الشاعرية، ارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة وتقدم نحوها بخطوات بطيئة):

- مساء الخير يا آنسة ستيفانيا. يبدو أن الحظ يبتسم لي الليلة بلقاء سيدة الفندق الفاتنة بمفردها في هذا المكان الساحر.

(ردت ستيفانيا بابتسامة غامضة، وأشارت بيدها الرقيقة المزينة بخاتم ياقوتي صغير إلى المقعد المقابل):

- مساء النور يا سيد ماركو. في فندقنا، لا نترك النزلاء المميزين يعانون من وحشة المساء. تفضل بالجلوس... هل ترغب في كأس من النبيذ؟

(جلس ماركو قريباً منها، وعيناه لا تفارقان ملامحها):

- نبيذ الكيانتي المعتق سيكون رائعا برفقتكِ. أخبريني يا ستيفانيا... كيف لامرأة بجمالك وثقافتك أن تعيش سجينة بين هذه الجدران القديمة لرجل مسن ومتحفظ مثل السيد رودولف؟

(ضحكت بخفوت، نغمة ضحكتها كانت تحمل سحرا مدروساً يثير الفضول):

- الجدران تحمي من عواصف روما يا ماركو، ورودولف رجل يقدر الولاء. لكن أخبرني أنت... ما الذي أتى بعائلة ثرية مثل عائلتكم إلى فندقنا المنعزل بدلا من النزول في فندق «هاسلر» الفاخر عند تلال الإسبان؟ هل للأمر علاقة بالأعمال؟ أم أن والدك يبحث عن شيء لا يمكن شراؤه من المتاجر العامة؟

(ضـــاق بؤبؤ عين ماركو للحظة، و حاول إخفاء ارتباكه بارتشاف جرعة من كأسه):

- والدي رجل تقليدي... مهووس بالقطع الفنية المفقودة. كان يحدثنا طوال الطريق عن ذكريات تعود لأيام الحرب. يقول إن روما تخفي كنوزاً تحت أنقاضـها تنتظر من يطالب بها.

(مالت ســتيفانيا نحوه قليلاً حتى لامســت خصــلات شــعرها كتفه، وفاحت منها رائحة عطر خشب الصندل الدافئ):

- كنز؟ وأنت يا ماركو... هل تبحث عن كنوز والدك القديمة، أم أن لك اهتمامات أخرى أكثر حيوية؟

(أمسك ماركو بيدها برقة، ولم تسحبها):

- أنا هنا لأبتعد عن روتين الحياة اليومية يا ســتيفانيا. وحين رأيتكِ هذا الصــباح، أدركت أن رحلتي إلى روما لن تكون مجرد مرافقة رتيبة لوالدي. أنتِ امرأة جذابة بشــكل خطير... هل لكِ من يشغل قلبكِ في هذه المدينة؟

(تنهدت بنبرة مشوبة بالحزن المصطنع):

- القلوب هنا تتجمد بسرعة يا ماركو إن لم تجد من يدثرها بالدفء. لكن في هذا الفندق، عليك أن تكون حذرا... فالجدران تملك عيونا، وبعض النزلاء ليسوا كما يبدون. شقيقتك لوسيا مثلاً... رأيتها تتجول بالقرب من سلالم الخدمة. أنصحك بأن تبقيها بعيدة عن الطوابق العليا الليلة.

(قطب ماركو حاجبيه):

- لوسيا؟ لماذا، هل هناك خطر؟

(ابتسمت وهي تسحب يدها برقة دلالية):

- ليس خطرا بالمعنى المفهوم، لكن الفضول الزائد في روما قد يقود إلى نهايات غير سارة.

وفي الطابق الأرضي السفلي، في الجناح المخصص لغرفة التدليك والاستجمام التابعة لمكتب رودولف، كانت الأجواء مختلفة تماما؛ مشحونة بتوتر جنسي ونفسي خانق.

كانت الغرفة مضاءة بشموع عريضة موضوعة في أوان نحاسية، تفوح منها رائحة زيت اللافندر وزيت الأوكالبتوس الحار، بينما كان صوت مزاريب المطر في الخارج يشكل خلفية موسيقية رتيبة وكئيبة.

كان رودولف مستلقيا على سرير التدليك الجلدي العريض، عاري الصدر جزئيا، ممسكا بكأس نبيذ في يده.

وكانت ماري تقف بجانبه، تدلك كتفيه وكتلة عضلات ظهره بحركات متوترة ومترددة، و يدا ها ترتجف فان كلما تلامست أصابعها مع جلده.

(قال رودولف دون أن يلتفت وصوته العميق يتردد ببطء في الغرفة):

- اضغطي بقوة أكبر يا ماري، كتفاي مشدودان كحبال سفينة في مهب عاصفة. ما حدث البارحة استنزف كل طاقتي.

(قالت بصوت خافت تكاد تخنقه العبرة):

- حاضر يا سيدي...

استدار رودولف فجأة ليرتكز على مرفقه، ونظر مباشرة في عينيها. كانت ماري تبدو في غاية الضعف أنفاسها متسارعة، وصدرها يرتفع ويهبط تحت قماش مريولها الرقيق، وشفتيها مرتعشتان.

(مد يده وأمسك بمعصمها بقبضة حازمة ولكن ناعمة كالمخمل):

- تعالي يا ماري ... انظري إلي.

(حاولت أن تسحب يدها بارتباك):

- سيدي ... قد تأتي الآنسة ستيفانيا في أي لحظة لتفقدك.

(أطلق رودولف ضحكة قصيرة باردة):

- ستيفانيا مشغولة الآن با صطياد النزيل الشاب في الصالون الأحمر، ولن تنزل إلى هنا قبل أن أستدعيها. أنت تعرفين أنك تعنين لي ما لا تعنيه ستيفانيا أبدا.

(جذبها نحوه برفق حتى انحنت فوقه، فرفع يده الأخرى ليمسد خصلة شعر تمردت على جبهتها):

- لماذا هذا الرعب في عينيك يا فتاة؟ منذ متى وأنت تخافين مني ؟ أنا من انتشلك من وحل أوستيا حين ألقى بك ذلك الوغد داليرو مضرجة بدمائك في شوارع روما. أنا من وفر لك هذا السقف والحماية.

(ا نحدرت دمعة حارة على خد ماري، وهمست بصوت متحشرج):

- أعلم يا سيدي ... وأنا مدينة لك بحياتي وبكل نفس أتنفسه. لكنني خائفة ... الفندق ينهار من حولنا، وأنت تلعب بالنار مع الجميع.

(اقترب أكثر حتى اختلطت أنفاسه الحارة بأنفاسها، وقبل باطن يدها برقة مدروسة. شهقت ماري كأن خنجرا طعن خاصرتها، واتسعت عيناها بهلع مطلق):

- أنا؟ أقسم لك يا سيدي رودولف، لم أكن أريد سوى...

لكن قبل أن تكمل كلماتها، فتح باب الغرفة بهدوء وبلا صوت يذكر.

(وقفت ستيفانيا عند العتبة، عيناها تلتمعان ببريق من الغيرة المكبوتة والشماتة الباردة):

- عذرا لمقاطعة هذه...

الفصل الخامس: ليلة في زاوية الظلال



حين ترتمي الفريسة عمدا في أحضان الصياد، فاعلم أنها تخفي خنجرا في كمها أو تبحث عن مفتاح قفصها.

مثل صقلي قديم

لوسيا تتسلل بجرأة غير محسوبة إلى غرفة كارلوس في الطابق العلوي لانتزاع الحقيقة، وتستدرجه بمزيج من التحدي والفتنة، دون أن تدري أن عيون ماري المشتعلة بالغيرة تراقب المشهد من عتمة الباب.

ركضـــت ماري عبر الممر المظلم، ودموع القهر وا لخذلان تحرق وجنتيها كالزيت المغلي. كانت خطوات كارلوس تلاحقها بخفة ولهفة، حتى انزلقت إلى غرفتها الصـــغيرة في قبو الخدم وحاولت إغلاق الباب في وجهه، لكنه دفع الباب بكتفه بقوة واقتحم الغرفة، وأغلق الباب خلفه بالمزلاج.

جلست ماري على حافة سريرها الحديدي الصغير، تدفن وجهها بين كفيها المرتعشـــتين وتجهش ببكاء هســـتيري يقطع نياط القلب.

كانت الغرفة ضـــيقة خالية من أي مظاهر الرفاهية صـــليب خشـــبي على الجدار المتآكل، وخزانة ملابس متهالكة، وعلى المنضـــدة مصـــباح زيتي خا فت يلقي ظلالا باهتة على ملاءة السرير البيضاء.

(انحنى كارلوس أ مام ها على ركبتيه، ممســـكا بيديها الباردتين كالثلج، وصوته يلهث بمزيج من التوسل والذعر):

- ماري ... أرجوك اسمعيني لم يكن الأمر كما تظنين ... تلك الفتاة لوســـيا، هي ابنة فرانشـــيســـكو فالكوني. لم

أكن أداعبها لذاتي، بل كنت أحاول انتزاع معلومات منها والدها يحمل وثائق تثبت ملكية الكنز الموجود في القبو، ولوسيا هي تذكرتنا الذهبية للخروج من هذا الجحيم إن امتلكنا تلك الوثيقة، سنستطيع ابتزاز فيتوريو ورودولف معا، ونهرب من إيطاليا كلها إلى أمريكا اللاتينية!

(رفعت ماري رأسها ببطء، ونظرت إليه بعينين محتقنتين بالازدراء والكراهية التي تحلت بها فجأة بعد سنوات من الخضوع الأعمى):

- تكذب أنت تكذب كما تتنفث دخان سجائرك يا ستيفان رأيت في عينيك الرغبة ذاتها، رأيت كيف كنت ستسلمها جسدك وروحك لو سيا ليست تذكرة خروج... لوسيا هي ضحيتك القادمة بعد هيلين، وبعد تلك المرأة المسكينة زوجة النزيل التي اختفت العام الماضي

(شحب وجه كارلوس كالجثة، وارتعشت شفتاه):

- ماري... إياك أن تنطقي بتلك الكلمات مرة أخرى إن سمعك أحد من رجال فيتوريو فلن يترددوا في شــق عنقك وإلقاء جثتك في مياه التيبر

(وقفت ماري بصلابة لم يعهدها فيها من قبل، وأشارت إلى الباب بإصبع لا يرتجف):

- اخرج من غرفتي. اخرج قبل أن أصــرخ وأوقظ كل من في الفندق. لقد نفد وقتك يا ; كارلوس ... وحان وقت دفع الثمن.

كان رودولف يقف خارج الفندق، الهواء البارد يلفه بينما يلتقي بصديق قديم، محقق محترف متقاعد.
كان اللقاء غير متوقع، ولكنه كان بمثابة الفرصة التي كان يبحث عنها منذ فترة طويلة. كان الحديث بينهما مليئا بالتوتر، فاختفاء السـيدة هيلين الغامض كان يشـغل تفكير رودولف طوال الأيام الماضية، وكان هناك شيء في الأجواء يشي بأن الأمور لا تسير كما يبدو.

(نظر المحقق إلى رودولف بعينين مليئتين بالحكمة، و عاد ليقول بصوت هادئ لكنه مفعم بالمعرفة):

- يبدو أنك تواجه مشكلة، رودولف.

(رد رودولف بلهجة متوترة، وكأن عبئًا ثقيلًا يضغط على صدره، بكلمات تحمل في طياتها انزعاجًا واضحًا وكأن ما يحدث ليس سوى جزء من لغز أكبر):

- اوه نعم، الأمور تزداد تعقيدًا. اختفاء هيلين، والآن هذه التوترات مع كارلوس.

(ابتسم المحقق بابتسامة ماكرة، وعيناه اللامعتان تظهران استمتاعًا بهذا الموقف الغامض، وقال بلطف وكأن الكلمات تحمل وعدًا بحل اللغز):

- ربما أستطيع مساعدتك. رغم اعتزالي، ما زلت أحتفظ ببعض المهارات.

كانت هذه الكلمات بمثابة شـــرارة في عقولهم، وكأن الباب بدأ ينفتح على أسـرار قد تكون أكثر تعقيدًا من أي شـيء قد يتوقعونه.

الفصل السادس: في مكتب المفتش ريكاردو موريتي

في سجلات شرطة روما، لا توجد جرائم غامضة ... توجد فقط جرائم دفع أصحابها ثمن صمت المحققين حتى يأتي محقق لا يقبل الرشوة إلا بالحقيقة

أرشيف الكويستورا

اختفاء لوسيا من غرفتها صباح اليوم التالي يدفع فرانشيسكو المذعور للتوجه إلى مقر شرطة روما المفتش ريكاردو موريتي يفتح ملف أليرغو ديلي أومبري، ويكشف عن سر دموي: هيلين المفقودة هي شقيقته الصغرى.

أشــرقت شمس الصــباح التالي على روما باهتة وباردة، كأنها قرص من الرصاص المصبوب بين غيوم خريفية معتمة.
لكن البرد الذي يلف شـوارع العاصـمة لم يكن شـيئاً مقارنة بالصقيع الذي ضرب قلب فرانشيسكو فالكوني حين فتح باب غرفة ابنته لوسيا في الطابق الأول ليوقظها لتناول الإفطار.
كان السـرير مرتباً كما هو، وحقيبتها الجلدية مغلقة، لكن معطفها العنابي وحذاءها المخصـص للمشـي لم يكونا هناك. وعلى وسـادتها، وجدت زهرة قرنفل بيضـاء ذابلة، نزعت بتلاتها بعنف كأنها علامة تحذير أو وداع.

صـدمة الأب كانت مدمرة؛ لم يتردد ثانية واحدة في تجاهل نصائح رودولف بالانتظار، وتوجه مباشرة بسيارته الألفا روميو عبر جسـر بونتي سـيسـتو نحو مقر إدارة الأمن العام والتحقيقات الجنائية في شرطة روما (Questura di Roma) في شارع سان فيتالي.

(سأل فرانشيسكو حارس البوابة بصوت مشحون بالهلع والألم):

- صباح الخير يا سيدي، هل يمكنك مساعدتي في العثور على المفتش المسؤول عن قضايا المفقودين ؟

(أجابه حارس البوابة موجهاً إياه):

- تفضل عبر هذا الممر الطويل في الطابق الثاني، مكتب المفتش موريتي في نهايته على اليمين.

حين دفع فرانشيسكو الباب الخشبي ذا الزجاج المصنفر، وجد نفسه أمام مكتب متواضع غارق في دخان التبغ ورائحة الورق القديم والقهوة المرة.

خلف المكتب الخشبي العريض جلس رجل في أوائل الثلاثينيات من عمره، ذو سمرة إيطالية جنوبية هادئة، ونظارات طبية ذات إطار عظمي داكن، تضفي على وجهه الحليق هالة من الصرامة الفلسفية والذكاء المتوقد.

كان هذا المفتش ريكاردو موريتي أحد ألمع محققي روما الشباب، والمعروف بعناده الأسطوري في ملاحقة قضايا الجريمة المنظمة وتجارة الآثار المسروقة.

(قال المفتش وهو يشير إلى المقعد الجلدي المقابل له):

- أهلاً بك يا سيدي، تفضل بالجلوس.... تبدو مرهقا للغاية، ما الذي يمكنني تقديمه لك؟

(جلس فرانشيسكو وهو يلهث، ويداه المرتجفتان تعبثان بحافة قبعته):

- شكرا لك يا حضرة المفتش. اسمي فرانشيسكو فالكوني، وصلت إلى روما منذ ثلاثة أيام قادما من باريس برفقة عائلتي الصغيرة. استأجرنا أجنحة في فندق راق وسط المدينة ... ولكن، هذا الصباح استيقظت لأجد أن ابنتي لوسيا، فتاة في السابعة عشرة من عمرها، قد اختفت في ظروف غامضة تماما من غرفتها المقفلة!

(كان المحقق يستمع بعناية، عاقدا حاجبيه قليلاً وهو يستوعب التفاصيل، ثم تساءل):

حسنًا يا سيدي، أحتاج إلى المزيد من المعلومات. كم يبلغ عمر ابنتك؟ وهل لاحظت أي شيء غير اعتيادي قبل اختفائها؟

(أجاب فرانشيسكو بلهفة وتوتر):

- ابنتي تبلغ من العمر ١٧ عامًا، ولم يكن هناك شيء يثير القلق. كل شيء كان يسير بشكل طبيعي حتى لحظة اختفائها.

(سأل المحقق باهتمام):

- ما اسم الفندق الذي تقيمون فيه؟

(رد فرانشيسكو محاولا التذكر):

أوه، لا أستطيع تذكر الاسم، لكنني أعلم أن المالك يُدعى رودولف.

(تغيرت ملامح المحقق بشكل واضح عند ذكر اسم رودولف، فوقف فجأة من كرسيه وأشعل سيجارًا ثم بدأ يتجول في الغرفة بخطوات متوترة كأنما يحاول تجميع أفكاره، وقال بصوت مملوء بالدهشة):

- يا إلهي، رودولف والفندق مرة أخرى؟ هذا لا يمكن أن يكون مجرد صدفة!

(عاد المحقق إلى كرسيه وقد بدت على وجهه علامات الغضب والقلق، وقال بنبرة مضطربة):

- لقد تكرر اسم هذا الفندق في عدة قضايا غامضة من قبل، وكلها محاطة بالتعقيد. سنحتاج إلى التحرك بسرعة فائقة. سأقوم بتوجيه فريق متخصص لمداهمة

الفندق وجمع كل الأدلة الممكنة. أرجوك، إذا تذكرت أي تفاصيل أخرى مهما كانت صغيرة، أبلغني فورًا.

(سأل فرانشيسكو بصوت مشحون بالهلع):

- من فضلك، سيدي، ماذا تعني؟ ماذا يحدث في الفندق؟ أرجوك، اشرح لي.

(نظر المحقق إليه بعمق، وكأنما يزن كلماته قبل أن يقول):

- منذ حوالي عام، تلقينا بلاغًا غريبًا عن اختفاء غامض لزوجة أحد النزلاء أثناء إقامتهما في الفندق. كانت القضية محاطة بالكثير من الأسرار، ولم نتمكن من الوصول إلى أي خيط يقودنا إليها، رغم كل الجهود المبذولة. ثم، بعد شهرين فقط، اختفى رجل أعمال بارز في ظروف مشابهة، مما أثار لدينا الكثير من التساؤلات ودفعنا لوضع الفندق والسيد رودولف تحت المراقبة الدقيقة.

(أخذ المحقق نفسًا عميقًا، ثم أضاف بصوت خافت):

- السيد رودولف، رغم سمعته الطيبة وتعاونه الظاهري، لم نستطع كسر الحاجز الغامض الذي يحيط به وبالفندق. قبل عشرة أيام فقط، ظهرت لنا قضية جديدة تتعلق باختفاء سيدة تُدعى هيلين، وكنت أعمل على فك طلاسم هذه القضية عندما قدمت لي بلاغك اليوم عن اختفاء ابنتك.

(نظر المحقق إليه بنظرة تحمل الكثير من القلق والترقب، وبنظرة حادة وخطوات تتردد في أرجاء المكان كأنما يتنقل داخل متاهة من الأسرار المخبأة، قال):

- هناك شيء مظلم يجري داخل جدران هذا الفندق، شيء يتجاوز الفهم التقليدي. هناك نمط خفي يتكرر، يتسلل إلى كل زاوية. نحن بحاجة للتحرك بسرعة، الوقت ليس في صالحنا. الخيوط تتشابك في دوامة من الغموض الذي قد لا يكون له نهاية واضحة. لكن السؤال هو: هل ستتعاون معنا؟

(وقف المحقق أمام فرانشيسكو الذي بدا عليه القلق الشديد وعيناه تمتلئان بالهمس الغامض. توقف لثوانٍ ثم نظر مباشرة إلى

عينيه وكأنما يسبر أغوار روحه، وسأل بصوت حازم محاولا اختراق طبقات الهدوء المزيف الذي يحيط به):

- هل هناك أي شخص خارج دائرة العائلة على علم باختفاء ابنتك؟

(أجاب فرانشيسكو بهدوء، لكن صوته كان يحمل بين طياته ضعفًا خفيًا كما لو أنه يقاوم سيلًا من الألم):

- لا، لم أخبر سوى شخصك.

(تأمل المحقق وجهه بعناية، ثم تابع بنبرة مدروسة وهو يراقب كل حركة وكل ارتعاشة في الجفن):

- هل تعرف أحدًا من نزلاء الفندق أو من طاقمه؟

(نظر فرانشيسكو إلى الأسفل للحظة محاولا التذكر، ثم رفع رأسه بنظرة ضبابية وأجاب):

- ليس كثيرًا... لكنني لاحظت السكرتيرة، الآنسة ستيفانيا. إنها ذات قلب طيب، وتعامل الجميع باحترام. كنت أراها كثيرًا برفقة ابني.

(دوّن المحقق بعض الملاحظات بهدوء دون أن يُظهر أي رد فعل، ثم رفع عينيه مرة أخرى وتفحصه لا ينفصل عن الرجل الماثل أمامه، وسأله):

- هل لاحظت أي شيء غير اعتيادي؟

(أخذ فرانشيسكو نفسًا عميقًا بملامح مشوشة محاولا تجميع شتات أفكاره، ثم هز رأسه ببطء وقال):

- لا، كل شيء كان يبدو طبيعيًا.

(نظر المحقق في عينيه ببرود، لكنه في داخله كان يشعر أن شيئًا ما قد فات، وأن الخيوط متشابكة بشكل أكبر مما يظن، فالمسألة أكبر من مجرد اختفاء فتاة. قال له وهو يتحرك ببطء نحو الباب بقلب ينبض بشدة عالما أن هذه القصة قد تكون بداية لشيء مظلم لم يُكشف بعد):

- حسنًا. لا تتحدث عن الأمر مع أحد. دع الأحداث تتكشف بطبيعتها. إذا احتجت إليك، سأجدك.

الفصل السابع: مكالمة منتصف الليل وسجلات الأرشيف

في الهاتف، لا ترى وجه من يحدثك، لكنك تسمع صرير حبال المشنقة وهي تلتف حول عنقك بهدوء.

أجاثا كريستي

فرانشيسكو يعود إلى الفندق ليجد ستيفانيا في انتظاره لتكشف له ما ارتكبه ابنه ماركو بينما يتلقى رودولف مكالمة ابتزاز حاسمة من فيتوريو، ويكتشف رسالة ماري الملفوفة بالخيط الأحمر.

خرج فرانشيسكو من مركز شرطة روما بخطوات متثاقلة، كأن جبال الأبينيني كلها قد استقرت فوق كاهله.

كان المطر قد عاد ليهطل بغزارة متجددة، يغسل الأرصفة الحجرية برذاذ بارد يثير القشعريرة.

حين أوقفت سيارة الأجرة أمام بوابة فندق أليرغو ديلي أومبري، شعر بقشعريرة مريبة تسري في عموده الفقري؛ كانت واجهة المبنى القوطية المهيبة تبدو تلك الليلة كأنها فك وحش حجري مستعد لابتلاع كل من يقترب منه.

وقبل أن يلمس مقبض الباب الخارجي، انفتحت البوابة ببطء، وظهرت ستيفانيا. كانت ترتدي فستانها الأسود الطويل ومعطفا داكنا يلتف حول كتفيها برقة.

(ارتسمت على شفتيها تلك الابتسامة الباردة التي لا تعكس دفئا ولا اطمئنانا، وبادرته قائلة):

- أهلا بعودتك يا سيد فرانشيسكو... هل كانت جولتك في أرجاء روما موفقة؟

(نظر إليها بحذر وتعب، وأجاب بصوت مرهق يتهرب من أسئلتها):

- أحتاج إلى الراحة في غرفتي يا آنسة ستيفانيا.

(اقتربت منه خطوة حتى همست في أذنه بنبرة مشحونة بالإلحاح السري):

- ليس قبل أن نلتقي عند منتصف الليل في غرفتي بالطابق الأرضي دون أن يراك أحد... الأمر يخص ابنك ماركو، ومستقبله وسلامته الشخصية معلقة على ما سأخبرك به الليلة.

(كان رودولف يقف أمام مكتبه، صوته يرن في المكان بنغمة غاضبة وهو يضغط على الهاتف في يده كما لو كان يود تحطيمه. بدا عليه التوتر الشديد، لكنه حاول أن يُخفيه خلف تلك اللكنة الهادئة التي طالما تميز بها قائلاً بحسم):

- نعم يا سيدي، سأكون في الموعد والمكان المحددين بسرية تامة يا سيدي! سألتزم بما طلبته وأحضر جميع السجلات. وداعًا!

كان كلامه قاسيًا، لكن هناك شيء في نبرته جعل ماري تتوقف عن التنفس، أو على الأقل شعرت بأذنها تكاد تلتقط أنفاسها بصعوبة. كانت تقف خلف الباب، تراقب دون أن ترى، كل كلمة تخرج من فم رودولف تزيد من شعورها بأن شيئا عميقًا يجرها إلى مكان مظلم.

وعند ما أغلق الهاتف، زادت حرارة الجو في الغرفة، وكأن الأجواء كلها قد اختلت.
عادت ماري إلى غرفتها، غيرت ملابسها بسرعة كما لو كانت تحاول الهروب من شيء ثقيل يضغط على قلبها، ثم خرجت متجهة إلى مكتب رودولف.

(وقفت ماري أمامه محاولة إخفاء ارتباكها، وقالت بنبرة عادية):

- سيدي، أود الحصول على بعض الوقت للذهاب إلى السوق التجاري لشراء بعض الأغراض الشخصية.

(بدا رودولف غير مهتم، أو هكذا حاول أن يظهر. نظر إليها ببرود ثم مد يده إلى جيبه وأخرج بعض المال، ورماه على الطاولة وكأنها لا تعنيه، وقال بصوت أكثر هدوءًا):

- لا بأس، اذهبي ولا تتأخري. لكن انتظري لحظة... ماري، خذي هذه الأموال واشتري لنفسك ملابس جديدة.

(التقطت المال وشكرته بصوت خافت، لكن قلبها كان مشغولا بأفكار أخرى):

- شكرًا لك يا سيدي، وداعًا.

خرجت من الفندق، وكانت خطواتها تتسارع، وكأن شيئًا ما يجذبها إلى خارج هذه الجدران الثقيلة. كان قلبها ينبض بسرعة، وعقلها يغلي بالصور المشوشة التي تراكمت في الأيام الماضية.

كل شيء أصبح أكثر تعقيدًا مما توقعت. اختفاء لوسيا... الفتاة الشابة التي جاءت مع عائلتها إلى الفندق، كان مجرد قمة الجبل الجليدي.

كانت تعلم أن هناك شيئا أكبر وراء اختفائها، شيئا كان يحوم في الأفق، لكنه لم يكن واضحًا بعد.

وسط كل هذا، كان هناك شيء آخر يراودها. ذلك الاجتماع الذي تحدث عنه رودولف في المكالمة، السجلات التي سيحضرها، الموعد والمكان المحدد.

ماذا كان يعني كل هذا؟ و لماذا شعر و كأن هذه الألغاز تلاحقها؟ لم يكن هناك وقت للتفكير أكثر، فهي الآن على و شك الدخول في متاهة لم تكن مستعدة لها، لكن خطواتها كانت قد حُددت بالفعل، ولا مجال للتراجع.

كان عليها أن تجد كارلوس بسرعة، وأن تُخبره بما اكتشفته. وكانت ماري على يقين أن كارلوس، على الرغم من ظهوره الهادئ، من الممكن أن يكون مجرمًا وخاطفًا.

كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً حين دفعت ماري الباب الزجاجي لمقهى «إيل غوتو» المنزوي في زقاق معتم متفرع من ساحة كامبو دي فيوري.

كان الضوء الشاحب المائل للصفرة ينضح من مصباح غازي يتيم معلق في السقف، يلقي بظلال بائسة على طاولات الخشب المبقعة بالنبيذ والقهوة المنسكبة. في الزاوية القصوى بجانب نا فذة تغسلها مياه المطر، جلس كارلوس بمفرده، ملفوفا بمعطفه الجلدي الأسود ينفث سحائب دخان سيجار توسكاني بأصابع ترتجف بعصبية لا تخطئها العين.

(تقدمت ماري نحوه بخطوات ثابتة ووقفت فوق رأسه كشبح العدالة النازل من السماء، وقالت بحزم واجهته به):

- أخيرا وجدتك يا كارلوس ... ولم يعد لدي أدنى خيار سوى مواجهة الحقيقة التي كنت أخشاها طوال الأشهر الماضية. الزمن حشرنا في زاوية مظلمة لا مهرب منها الليلة.

(رفع كارلوس نظره نحوها فجأة، و سقطت رماد سيجارته على بنطاله، وتشوهت ملامحه بذعر مكتوم متسائلاً بارتباك):

- ما الأمر يا ماري ؟ ماذا تريدين مني الآن في هذا المكان؟ هل جننت لتلاحقيني إلى هنا؟

ساد صمت مريب في ركن المقهى، بدا فيه صوت قطرات الماء التي تسقط من معطف ماري المبتل على الأرض كأنه دقات ساعة مؤقتة لقنبلة موقوتة.

(انحنت ماري فوق الطاولة، وهمست بنبرة فولاذية لا تقبل المساومة):

أين لوسيا يا كارلوس ؟ أين تخفي تلك الفتاة البريئة ؟

(جحظت عيناه، وحاول التظاهر بالسخرية والإنكار، لكن صوته خانه ليخرج حشرجة مذعورة وهو يدافع عن نفسه):

- هل فقدت عقلك تماما يا امرأة؟ ما علاقتي بلوسيا؟ ألم تصعد لغرفتها في الفندق؟

(ضربت ماري بكفها الرقيق على الطاولة بقوة اهتز لها فنجان القهوة الفارغ، وقاطعت إنكاره بيقين قاطع):

- أعلم جيدا أنك وراء اختفائها!

(تابعت ماري بنبرة قاطعة تفضح أسراره):

- بعد منتصف الليل وأعلم أنك بالاشتراك مع فيتوريو خطفتما هيلين قبل أيام من الغرفة ٣٧. أنت لست

كارلوس... أنت ستيفان بيانكي، ذلك اللص الصغير الذي جرني إلى مستنقع الخيانة.

وقف كارلوس منتفضاً عن كرسيه، وتلفت في أرجاء المقهى برعب خشية أن يكون هناك من يتنصت عليهما.

(قال بصوت متهدج يملؤه الخوف واليأس):

- أنت لا تعرفين كل شيء يا ماري... هذه القضايا أكبر من رأسك ورأسي معاً! إنها صفقات تمتد من عائلات نابولي وفلورنسا حتى وزراء في الحكومة. رودولف نفسه متورط حتى أذنيه في إخفاء سجلات الحرب واللوحات المسروقة! أنا لم أكن سوى بيدق ينفذ الأوامر لينقذ حياته وحياتك.

(ردت ماري بعينين تفيضان بالدموع والاشمئزاز متجاهلة تبريراته):

- لم تعد تهمني أعذارك يا ستيفان. لقد كتبت كل شيء... كل تفصيلة من ماضيك وهويتك وما خططت له،

ووضعت الرسالة في مكان لن يفوته رودولف والشرطة.

لقد انتهت لعبتك.

ا ستدارت ماري وغادرت المقهى بسرعة، تاركة كارلوس يغلي في مكانه كمرجل محترق.

خرج كارلوس يركض في الزقاق المظلم تحت المطر المنهمر يلف نفسه بمعطفه الجلدي حتى وصل إلى نفق حجري قديم يربط بين حيين قديمين هناك في عتمة النفق الرطب، كان يقف رجل ستيني مسن يرتدي معطفا باهظ الثمن من الفرو الأسود، يمسك بيده مظلة حريرية ضخمة؛ إنه فيتوريو دي لوكا، العقل المدبر لشبكة تهريب الآثار والابتزاز في وسط إيطاليا.

(قال فيتوريو بنبرة باردة خالية من أي مشاعر بشرية وهو يرقب وصوله):

- تأخرت يا ستيفان... هل حصلت على مفتاح الخزانة من الفتاة؟

توقف كارلوس لاهثا، وأسند يده إلى الجدار المبلل وهو يبلع ريقه.

(أجاب بصوت متقطع يرتجف من الخوف):

- لقد أصبحت الأمور معقدة للغاية يا فيتوريو... الفتاة لوسيا ... لقد هربت.

تجمدت ملامح فيتوريو لثوان ثم انفرجت شفتاه عن ضحكة قصيرة باردة تشبه قعقعة العظام.

(تساءل باستهزاء وغضب مكتوم):

- هربت؟ فتاة في السابعة عشرة تهرب من بيت ريفي يحرسه اثنان من رجالك ؟

(برر كارلوس موقفه بخنوع وارتباك):

- لقد احتالت على الحارس الصبي، وكسرت نافذة القبو الصغير وتسللت عبر بستان الزيتون في الظلام.

أغلق فيتوريو مظلته بهدوء ونظر إلى كارلوس بنظرة قاتلة.

(تحدث بنبرة وعيد خطيرة وعيناه تشتعلان مكراً):

- وهذا يعني أنها ستعود يا أحمق... دائما يعودون إلى وكر الذئاب ظنا منهم أنهم قادرون على إنقاذ عائلاتهم. والآن، جهز سلاحك .... سنقتحم فندق البيرغو ديلي أومبري الليلة قبل أن يسبقنا المفتش موريتي إلى سرداب المقتنيات.

في منزل ريفي شبه مهجور يقع على أطراف طريق «فيا أبيا أنتيكا» الأثري جنوب روما، بين أشجار السرو العالية وأطلال المقابر الرومانية القديمة، كانت لوسيا جالسة على حافة سرير حديدي متآكل في غرفة صغيرة تفوح منها رائحة القش الرطب وحبوب الذرة القديمة.

كانت يداها متسختين بالتراب الأسود، وثوبها العنابي ممزقا عند الركبة إثر قفزتها الجريئة من نافذة العلية الخلفية.
لم تكن تبكي، بل كانت عيناها العسليتان تتقدان بإصرار ناري لا ينكسر.

استغلت لحظة نوم الحارس السكران الذي كلفه كارلوس بحراستها، وتمكنت من فك القيد الصوفي عن معصميها، وحصلت على قلم رصاص وقطعة ورق ممزقة من دفتر حسابات زراعي عثرت عليه بين الأنقاض.

(كتبت بخط مرتجف لكنه واضح المعالم رسالة حاسمة ومستعجلة تنذر بالخطر):

رودولف لا تثق بأحد من حولك... أنا حية، وعرفت سر القبو وسجلات عام أربعة وأربعين. ستجدني حيث التقينا لأول مرة في الحديقة الخلفية عند بوابة السرداب الحجري. تحرك فورا ومعك الشرطة قبل أن يصل فيتوريو ورجاله. لا تتأخر! لوسيا فالكوني.

طوت الورقة بعناية، ثم زحفت بهدوء نحو السياج الخشبي الفاصل بين البيت المهجور ومزرعة مجاورة.

هناك، تحت سقيفة حجرية تحمي من المطر، رأت صبيا صغيرا في العاشـــرة من عمره يدعى جيوفاني، اعتاد أن يجمع الحطب وحبات الكستناء المتساقطة.

(صفرت له بصوت خافت ونادته بحذر ممزوج بالرجاء):

- جيوفاني تعال هنا بسرعة يا شجاع ....

وبعد منتصـــف الليل كان رودولف ينتظر بقلق عودة ماري من التسوق وقد مر على ذهابها أكثر من ثلاث ساعات.

أثناء دخول رودولف غرفة ماري، كان يشـــعر بقلق غير مبرر. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا، وماري لم تعد بعد. عيناه تركزان على الباب أمامه، لكن شـــيئًا ما في الغرفة أثار انتباهه.

كان هناك ظرف صـــغير على الطاولة، ملفوف بخيط أحمر، وكان اسم ماري مكتوبًا بخط يدها على الجهة الأمامية.

فتح رودولف الظرف بسرعة، وكان في الداخل رسالة مكتوبة بحروف أنيقة ولكن متسرعة، وكأن كاتبتها كانت تحت ضغط كبير:

عزيزي رودولف،

ربما لم أكن صادقة معك منذ البداية، وربما أخطأت في حقك حينما أخفيت عنك بعض الحقائق. أعلم أن الوقت لا يمكنه أن يعيدني إلى الوراء، ولكن هناك أمور يجب أن تعرفها الآن، قبل أن تكتشفها بنفسك في لحظة قاتلة. كنت أنتظر اللحظة المناسبة لأخبرك، ولكن تلك اللحظة تأخرت كثيرًا. أنا وكارلوس، الذي لم يكن اسمه حقا "كارلوس"، بل اسمه الحقيقي "ستيفان"، التقينا في مدينتي الأصلية. كان مجرد عابر سبيل في البداية، ولكننا قررنا الهروب معًا إلى روما، متخيلين أننا نستطيع بناء حياة جديدة، حياة تبتعد عن الماضي الذي لا مفر منه. دخلنا إلى الفندق هنا، وكل شيء كان مخططا بعناية، حتى إتمام الخطة للوصول إليك. أردنا أن نظهر لك أنني كنت ضحية العنف، وأنني في خطر. ولكن في اللحظة التي كان سيكتشف فيها كارلوس أنني على وشك كشف السر، كانت كل خيوط اللعبة ستبدأ في التراجع. لكن الحقيقة أكبر من كل هذا. لم يكن هدفنا مجرد الوصول إلى عالمك أو أن نضع قدمًا في مكانك. كنا نبحث عن شيء أكبر بكثير، شيئا مظلمًا ومؤلما. ولكن، الآن،

بعد أن أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا مما كنت أتخيل، أصبحت مضطرة للكشف عن كل شيء. لقد اكتشفت ما لم أكن أعرفه في البداية. كارلوس ليس فقط شابًا هاربًا كما كنت أظن، بل هو جزء من مؤامرة أكبر مما يمكن لعقلي أن يستوعب. هو المسؤول عن اختفاء العديد من الفتيات في هذا الفندق: لوسيا، هيلين، والعديد من الفتيات الأخريات. لقد كان هو من يقف وراء اختفائهن، كان يخطفهن ويُوهم الجميع بأنهن ضحايا، في حين أنه كان يستخدم الفندق كمخبأ سري لتنفيذ خطط شيطانية أكثر تطورًا مما كنت أتخيل. كل شيء كان مدبرًا بشكل محكم. وكلما اقتربت من اكتشاف الحقيقة، زادت مقاومته لي. والآن، أؤكد لك أنني كنت جزءًا من تلك اللعبة طوال الوقت، دون أن أكون على دراية بذلك. استخدمني لتحقيق أهدافه. أنت الآن، فقط أنت، من يستطيع أن يوقفه. ولكن يجب أن تتحرك بسرعة. أعلم أن ما أقوله يبدو غير معقول، ولكن لو كنت مكانك، لعرفت أنني أقول الحقيقة.

ماري.

كان رودولف يقف ساكنًا، وكأنما تجمدت جميع حواسه للحظة. الآن أصبح كل شيء أكثر وضوحًا وأكثر رعبًا. اختفاء لوسيا، هيلين، وكل الفتيات، كان مدبرًا من قبل كارلوس. الرجل الذي كان يبدو عاديًا، والذي دخل حياة

ماري، كان في الواقع خيطا رئيسيًا في شبكة معقدة من الاختطاف والتلاعب.

(همس رودولف لنفسه بذهول وهو يعيد الرسالة إلى الظرف والكلمات تخرج متثاقلة من بين شفتيه):

- هذا أبعد بكثير مما كنت أعتقد...

كان يقف الآن أمام حقيقة مخيفة: كارلوس كان وراء كل شيء، وكان عليه أن يتحرك بسرعة قبل أن تتكشف المزيد من الأسرار.

في تلك اللحظة، شعر بشيء غريب: الخوف، ولكنه كان في ذات الوقت مدفوعًا بالإصرار على إيقاف كارلوس وكشف اللغز الكبير الذي يحيط بفندقه.

(اقترب الصبي بخوف وتوجس وهو ينظر إلى ثيابها الممزقة وعينيها اللامعتين في العتمة، وتساءل بفضول وبراءة):

- من أنت يا آنسة؟ هل أنت سجينة ذلك الرجل ذي المعطف الجلدي ؟

(ابتسمت لوسيا برقة ومدت يدها لتمسح على رأسه المبلل، وتحدثت بنبرة حنونة ولكن حازمة):

- أنا ابنة تاجر تحف كبير يا جيوفاني خذ هذه الورقة المربوطة الآن... اركب دراجتك واذهب بها إلى فندق أليبرغو ديلي أومبري قرب ساحة نافونا، و سلمها بيدك فقط لرجل يدعى السيد رودولف مينيلي. لا تدع أحدا في الطريق يراها أو يأخذها منك وأعدك أنني سأشتري لك دراجة إيطالية جديدة من سباقات فلورنسا حين ينتهي هذا الكابوس.

(برقت عينا الصبي بالبهجة والأمل، وهز رأسه بحماس طفولي مبديا استعداده التام للمهمة):

- أعدك يا آنستي سأطير كالسهم في شوارع روما ولن يلمس أحد رسالتك.

انطلق الصبي يركض بدراجته الصغيرة تحت وابل المطر، بينما تسللت لوسيا عبر الأزقة الفرعية الموحلة لتقترب من محيط الفندق وتنتظر ساعة الصفر.

وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، كان رودولف يقف في بهو الفندق مما سكا بر سالة ماري ذات الخيط الأحمر، وعقله يدور في دوامة من الرعب والندم حين انفتحت البوابة الخارجية فجأة ليدخل الصبي جيوفاني يلهث كحصان جامح، والمياه تسيل من قبعته على رخام البهو.

(تقدم الصبي وهو يلهث، ومد يده بالرسالة قائلاً بصوت متقطع):

- سيدي سيدي رودولف هذه لك ... من الفتاة ذات العيون الشجاعة في طريق فيا أبيا!

خطف رودولف الورقة المبللة، وقرأ السطور السريعة بقلب يقرع كالطبول. رفع رأسه نحو المفتش ريكاردو موريتي الذي كان

قد وصل لتوه برفقة قوة سرية من رجال الشرطة متنكرين في زي مدني.

(تحدث رودولف بصوت يرتجف من الحماس والأمل وهو يوجه نظره للمفتش):

- حضرة المفتش ... لوسيا على قيد الحياة، وهي تقودنا إلى مسرح الجريمة الحقيقي: القبو البيزنطي تحت هذا المبنى.

-

ستيفانيا كانت تنتظر أحد الأشخاص في وسط المدينة. بعد لحظات، التقت بشاب وسيم طويل القامة قام باحتضانها وتقبيلها، وبعد ذلك استقلا سيارة أجرة وتوجها إلى أحد الأحياء في روما. دخلوا ذلك المنزل المعزول نسبيا عن البلدة، وبعد مرور ساعتين خرجت ستيفانيا من المنزل واستقلت سيارة أجرة وتوجهت نحو الفندق.

في المساء، كان السيد فراذ شيسكو يتنقل من غرفته إلى بهو الفندق وهو في حالة من القلق والتوتر. في تلك اللحظة، كان رودولف أيضاً ينتظر قدوم ماري لأنها تأخرت أكثر من المعتاد.

بعد منتصف الليل، وعندما كان فرانشيسكو قد نفد صبره من الانتظار وأراد الدخول إلى غرفته.

(اقتربت ستيفانيا منه بحذر وهمست في أذنه بنبرة خافتة وسرية):

- تعال إلى غرفتي دون أن يراك أحد.

ذهب فرانشيسكو خلفها دون أن يراه أحد وكان مندهشا وقلقا. بعد دخوله الغرفة، قامت ستيفانيا بقفل الباب.

(التفتت إليه بملامح هادئة وقالت وهي تشير إلى المقعد):

- أرجوك اجلس ولا داعي للقلق.

شعر فرانشيسكو بالارتباك محاولا فهم ما يحدث.

(جلست مقابله وتحدثت بنبرة حذرة تحاول التمهيد للأمر):

- سيدي، أريد أن أخبرك بشيء قد لا يعجبك، لكني أعلم أنك رجل حكيم وتتصرف بعقلك ولا تسعى لإثارة المشاكل.

(تطلع إليها بقلق متزايد وصوت مشحون بالتوتر والترقب):

- ماذا لديك يا ستيفانيا؟ تكلمي أرجوك.

(تنهدت بضيق مصطنع وأشاحت بنظرها قليلاً قبل أن تجيب):

- أوه سيدي، لا أعرف كيف أبدأ... لكن المشكلة تخص ابنك ماركو.

حبس فرانشيسكو أنفاسه وارتجفت لحيته المشذبة:

- ماركو؟ ما الذي فعله ماركو بحق السماء؟

تفرست فيه ستيفانيا بنظرة تفيض بالقسوة والحزن العميق:

- ابنك ماركو ليس الشاب الباريسي الساذج الذي تظنه يا سيد فرانشيسكو. لقد غرق في نوادي القمار غير القانونية في فلورنسا حتى أذنيه، وديونه لرجال فيتوريو دي لوكا تجاوزت الملايين! ولكي يشتري رقبته من القتل، عقد صفقة قذرة مع فيتوريو: أن يسلمه خرائط أماناتك،

ونسخة مفتاح خزانة والدته، ويد له على مكان إخفاء لوحة «مادونا البكاء»! الشاب الذي التقيته عصراً في وسط المدينة ودخلت معه المنزل المنعزل... كان ابنك ماركو! كنت أحاول ثنيه عن بيع عائلته، لكنه كان قد سلم فيتوريو مخطط الفندق بالكامل!

سقط فرانشيسكو على المقعد ممسكا برأسه كالمطعون:

- ماركو؟ ولدي الوحيد يبيعني لعصابة آثار؟ ولو سيا... هل كان يعلم باختطاف شقيقته؟

أجابت ستيفانيا بصوت قاطع كالحديد البارد:

- بل كان شريكا في استدراجها! لقد ظن أن فيتوريو سيبتزك بها لتسليم اللوحة فقط دون إيذائها. لكن الآن... الجميع في مرمى النار، والساعة تقترب من الواحدة صباحا، والأرض تحت أقدامنا توشك أن تنشق!

الفصل الثامن: أصوات في السرداب البيزنطي

حين تنزل إلى قيعان روما، لا تبحث عن النور؛ فالظلام وحده هو من يعرف أسماء الموتى.

غويدو كافالكانتي

اللقاء العاصف في الحديقة الخلفية تحت وابل المطر؛ لوسيا تقود المفتش موريتي ورودولف وفرانشيسكو إلى بوابة السرداب الحجري، بينما تقتحم عصابة فيتوريو الأنفاق السفلية متخذة من كارلوس درعا بشريا.

كانت الرياح تعوي بين أشجار السرو في الحديقة الخلفية لفندق أليرغو ديلي أومبري كأنها أرواح غاضبة تستغيث من رماد القرون.

المطر كان ينهمر في خيوط كثيفة تجعل الرؤية شبه مستحيلة، وأحجار الرخام المكسوة بالطحالب الرطبة كانت تنزلق تحت الأقدام كمسرح شيد للغدر.

تقدم المفتش ريكاردو موريتي بحذر شديد، يمسك بيده مسدساً من طراز بيريتا عيار تسعة ملم، وخلفه أربعة من أفراد الشرطة في ملابس مدنية، يتبعهم رودولف ممسكاً بعصا الأبنوس التي يخفي في مقبضها نصلاً فولاذياً، وفرانشيسكو فالكوني الذي كان يترنح تحت وطأة صدمة خيانة ابنه ماركو.

عند الزاوية الغربية للحديقة، تحت عريشة اللبلاب الكثيفة المحيطة بالبوابة الحجرية العتيقة للسرداب الروماني، انشقت الظلال فجأة.

خرجت لوسيا كطيف مقدام، معطفها العنابي ممزق ومبلل بالتراب والمطر، لكن عينيها كانتا تشتعلان بلهيب التحدي والصمود:

- أبي! رودولف! أوقفوا أي صوت... إنهم في الداخل منذ عشر دقائق!

اندفع فرانشيسكو وعانقها باكيا بمرارة الأب المذعور:

- لوسيا! ابنتي الغالية... يا إلهي، أنتِ بخير! هل مسكِ ذلك الوغد بسوء؟

أزاحت لوسيا خصلات شعرها المبتل عن جبينها وأشارت نحو المزلاج الحديدي الثقيل للبوابة الحجرية:

- لست في خطر الآن يا أبي، لكن الخطر يلتف حول أعناق الجميع في الأسفل! فيتوريو دي لوكا ورجاله اقتحموا قبو الأرشيف عبر نفق تصريف المياه الروماني المتصل بنهر التيبر. وجلبوا معهم كارلوس مكبلاً بالحبال والدماء تسيل من وجهه ككبش فداء... ومعهم ماركو!

شـهق فرانشـيسـكو وتراجع خطوة إلى الوراء كأن رصـاصـة استقرت في صدره:

- ماركو معهم؟ في الأسفل؟

تدخل المفتش موريتي بنبرة صارمة حاسمة وأشار لرجاله بتأمين المخرج:

- لا وقت للندم الآن يا سيد فالكوني. لوسيا... كيف عرفتِ بوجود النفق السري ومكان السرداب؟

تطلعت لوسـيا في عيني المفتش بنظرة نافذة جعلت قلبه يتوقف للحظة:

- لم أكن و حدي في المنزل الريفي على طريق فيا أبيا يا حضـرة المفتش... شـخص ما فك وثاقي من وراء ظهورهم، ودلني على ممر القنوات الذي يعود إلى هذا القبو، وأعطاني هذا الخاتم الذهبي المحفور عليه زهرة الزنبق الفلورنسـية لأعطيه لك!

امتدت يد لوسيا لتضع في كف المفتش موريتي خاتما ذهبيا عتيقا. تجمد جسد المفتش، واتسعت عيناه خلف نظارته الطبية، وسقطت قطرة مطر باردة على زجاجها:

- خاتم أمي... هيلين! هيلين حية؟ أين هي بحق السماء؟

ابتسمت لوسيا ابتسامة غامضة مشحونة بالأسرار:

- ستراها بعينيك في نهاية هذا النفق... لكن استعد يا حضرة المفتش، لأن ما ستكتشفه في تلك الكريبتة البيزنطية سيغير كل ما كنت تعتقد أنك تعرفه عن القانون والعدالة في هذه المدينة!

دفع رود ولف المقبض الحديدي الثقيل للبوابة الحجرية. انفتحت البوابة بصرير موحش يشبه أنين القبور المنسية، ففاحت في وجوههم رائحة رطوبة خانقة ممزوجة بعبق الورق المتآكل، والبخور الكنسي القديم، ونفاذ بارود الرصاص.

هبط الجميع عبر درجات السلم الحجري اللولبي المنحوت في قلب الصخر الترافرتيني. كانت الجدران ترشح ماءً باردا، والظلال ترقص على قباب العمارة البيزنطية العتيقة المنحدرة تحت الفندق لأكثر من عشرين مترا.
مع كل درجة يهبطونها، كانت تتناهى إلى مسامعهم أصوات شجار حاد وقرقعة عتلات حديدية تكسر أقفال الخزائن.

تسود لحظة صمت ثقيلة يمتزج فيها صرير العتلات الصدئة بصدى قطرات الماء المنهمرة من قبة السرداب البيزنطي. كان الهواء محصنا برائحة الرطوبة والتاريخ الغابر، والظلال ترقص على الأعمدة الرومانية الغارقة في الدجى كأنها حراس يحرسون أسرار الموتى.

خطا المفتش موريتي خطوة وثيقة إلى الأمام، فدوت وقع أقدام أفراد الشرطة فوق الفسيفساء المكسورة، حاسمة تسع سنوات من الأسرار المعلقة في الظلام. كان مقبض مسدسه البيرتا باردا في كفه، لكن شعلة الثأر للعدالة والبحث عن شقيقته كانت تتقد في صدائه.

وإلى جانبه، وقف رودولف يلقي بنظراته الفاحصة صوب العتمة القادمة من خلف مذبح الماريا، يداه تقبضان على عصا الأبنوس بحزم وعيناه تختزلان عقوداً من الصمت والثقل الأرستقراطي.

خلفهما، كانت لوسيا تتنفس بصوت مكتوم وهي تضغط على ذراع والدها فرانشيسكو، الذي كان يجر خطاه المتهالكة كمن يساق إلى مقصلة حقيقته.

فجأة، انبعث من أعماق القاعة صفير حاد من خافض ضغط مواقد الكيروسين، مترافقاً مع صدى صوت فيتوريو دي لوكا الأجش وهو يزمجر في وجه كارلوس ماركو.

كانت اللحظة الحرجية قد دنت، والستارة الفاصلة بين الحقيقة والخيانة على وشك أن ترفع بطلقة واحدة.

الفصل التاسع: محكمة الظلال والمرايا المتكسرة

لا أحد بريء في ليلة المطر؛ الجميع إما شارك في سفك الدم، أو مسح السكين بردائه النظيف.

ليوناردو شاشا

المواجهة الكبرى في الكريبتة؛ هيلين موريتي تخرج حية من وراء المذبح كا شفة خيوط التسميم، وماري تخلع قناع الخادمة لتكشف نسبها الشيطاني، بينما يفجر سجل ١٩٤٤ حقيقة خيانة فرانشيسكو فالكوني ونسب ستيفانيا الحقيقي.

وصـــلت المجموعة إلى مدخل القاعة البيزنطية العريضـــة.
كانت القاعة تتنفس أهوال التاريخ: أرضـــية فســـيفســـائية مشققة، تماثيل قديسين مكسورة الأنوف، وصناديق خشبية ضخمة مكدسة تكسوها خيوط العنكبوت والتراب.
في وسط القاعة، كان مشهد الرعب مكتملا تحت ضوء ثلاثة فوانيس كيروسين متوهجة.

وقف فيتوريو دي لوكا بمعطفه الفرو الفاخر، ممســـكا بمســـدس براونينغ لامع، و بجانبه اثنان من القتلة المأجورين يوجهان فوهتي بندقيتين نحو كارلوس الملقى على ركبتيه، مقيد اليدين خلف ظهره، ينزف من أنفه وشـــفتيه المشـــققتين.
وعلى مســـافة خطوتين، وقف ماركو فالكوني يرتجف كورقة في مهب الريح، محتضنا حقيبة جلدية صغيرة سرقها من خزانة والده.

دوى صوت فيتوريو الأجش وهو يركل صندوقا خشبيا:

- أين المفتاح الماســـتر يا ســـتيفان؟ أقســـم بالثالوث إن لم تفتح القاصـــة الفولاذية في هذا الجدار قبل أن تنفد ســـجارتي

فسأفرغ هذه الرصاصة في رأسك وألقي بجثتك في فتحة المجاري لتطعم جرذان التيبر!

بكى كارلوس بصوت متهدج لاهث بالرجاء:

- أقسم لك يا فيتوريو... المفتاح ليس معي! ماري هي التي أخذت السلسلة... ماري خدعتنا جميعا!

في تلك اللحظة بالذات، خرج المفتش ريكاردو موريتي ورجاله من خلف الأعمدة الضخمة مشهرين أسلحتهم بصوت حاسم يزلزل الجدران:

- شرطة روما! ألقوا أسلحتكم جميعا وارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم! المكان محاصر بالكامل!

انتفض قتلة فيتوريو وتراجعوا نحو الزاوية، بينما رفع فيتوريو مسدسه ببرود شديد ووجهه نحو صدر المفتش، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ذئب عجوز لا يخشى الموت:

- المفتش موريتي بذاته؟ يا لحسن الطالع... جئت لتشهد نهاية الرواية التي بدأتها شقيقتك الحمقاء؟ هيلين تعفنت منذ أيام في قاع البئر الارتوازي يا حضرة المحقق، ولن تجد منها سوى العظام!

دوى صوت نسائي قاطع، ناصع ورنان، خرج من خلف المذبح الرخامي للقديسة لوسيا في أقصى الكريبتة:

- لست في البئر يا فيتوريو... بل هنا، أحمل كفنك بيدي!

تجمد الجميع كأن صاعقة شقت باطن الأرض.

اذ شقت الستارة العتيقة الممزقة خلف المذبح، وخرجت السيدة هيلين موريتي! كانت ترتدي معطفها الجلدي الرمادي، شعرها الأشقر مربوط بعقدة أنيقة وراء رأسها، وبيدها مسدس بيريتا صغير موجه مباشرة إلى جبين فيتوريو، وفي يدها الأخرى الدفتر الأسود الجلدي العريض: سجل أمانات عام ١٩٤٤!

صرخ المفتش موريتي بدموع الفرح والذهول:

- هيلين! أنتِ حية!

نظرت هيلين إلى شقيقها بابتسامة نصر شجاعة ثم وجهت عينين من صلب نحو فيتوريو:

- حية لأنني أعرف سموم هذا الفندق يا ريكاردو! في الليلة المشؤومة، وضعت لي ماري مادة الديجيتاليس السامة في كوب الشاي بالغرفة ٣٧، تلك النبتة القاتلة التي تبطئ القلب حتى يتوهم الطبيب أنها سكتة قلبية طبيعية! وحين شممت رائحة عطرها المميز زهر البرد قال المر على حافة الكوب، أدركت الفخ، وتظاهرت بالاختناق وسكبت الشاي في أصيص الورد، ثم تسللت عبر ممر الخدمة السري إلى هذا القبو الذي كنت أدرسه منذ أسابيع!

صاح فرانشيسكو بمرارة وهو يرى ابنه ماركو يرتجف:

- ماركو! يا عار العائلة... لماذا فعلت هذا بنا وبأختك؟

صرخ ماركو بانهيار هستيري:

- كنت سأموت يا أبي! فيتوريو كان سيقطع أصابعي ويدمر حياتي في باريس بسبب ديون القمار! أخبرني أنه يريد اللوحة فقط والسجلات ولن يؤذي أحدا... لكني لم أكن أعلم أنه سيخطف لوسيا!

وهنا، انفتح الباب الجانبي لممر الخدمة السفلي ببطء، ودخلت ماري وستيفانيا!

لكن ماري لم تعد تلك الخادمة البسيطة ذات المريول الرمادي والدموع الضعيفة؛ كانت ترتدي معطفا جلديا أسود، وتقبض على مسدس ريفولفر صغير، وعيناها تفيضان بكبرياء مظلم وشر مستطير!

وقف رودولف مذهولا وصرخ بصوت مرتجف:

- ماري؟ أنتِ أيضا؟ الرسالة ذات الخيط الأحمر... قلتي إنك ضحية كارلوس!

انفجرت ماري بضحكة هستيرية ساخرة اهتزت لها قبة القبو:

- ضحية؟ رودولف الساذج... يا لك من رجل أعمى يظن نفسه حاكما لروما! هل صدقت حقا أن فتاة لقيطة مرمية في شوارع أوستيا كانت صدفة؟ أنا لست ماري الخادمة المسكينة... أنا ماريا دي لوكا! ابنة فيتوريو الوحيدة التي ربا ها لتكون عينيه وأذنيه في عرشك العتيق! دخلت فندقك بمخطط مدروس، ومثلت دور المعتدى عليها لتأويني بحنانك الأبوي الأبله، لكي أبحث طوال ثلاث سنوات عن الخزينة التي عجز كل لصوص إيطاليا عن الوصول إليها!

التفتت ماري نحو كارلوس بازدراء مميت:

- أما هذا الأرنب الرعديد ستيفان بيانكي، فلم يكن سوى طعم غبي استدرجته لمساعدتي في نقل الوثائق، لكنه جبن في اللحظة الأخيرة حين تعلق قلبه بهيلين ثم بلوسيا!

رفع رودولف عصـــا الأبنوس إلى الأعلى، و تحدث بصـــوت رخيم عميق يملأ الصمت بالرهبة:

- لم تكوني ذكية كفاية يا ماريا دي لوكا... لأن الخزينة لم تكن مغلقة بقفل حديدي قط، بل كانت مغلقة بالحقيقة التي يخشـــاها الجميع هنا، والحقيقة مدونة في هذا السجل الذي تحمله هيلين!

تقدمت هيلين وفتحت الدفتر الجلدي الأســـود تحت ضـــوء الفوانيس، وقرأت بصوت هز أركان الصمت:

- وثيقة الودائع الســـرية، ليلة ١٤ تشـــرين الأول عام ١٩٤٤: المتنازل: فرانشيسكو فالكوني!

ســـقطت الكلمات كالصـــاعقة فوق رأس لوســـيا وماركو. التفتت لوسيا نحو والدها فرانشيسكو بعينين مروعتين:

- أبي؟ المتنازل؟ ماذا يعني هذا؟

تابعت هيلين بقسوة لا ترحم:

- يعني أن والدك النبيل لم يكن ضحية الحرب يا لوسيا! في خريف أربعة وأربعين، حين كانت القوات الفاشية تنهار، قام فرانشيسكو فالكوني ببيع أصدقائه وشركائه: عائلة الكونت أليساندرو روسي، الملاك الأصليين لهذا القصر وفندق البيرغو ديلي أومبري ولوحة رافائيلينو «مادونا البكاء»! سلمهم فرانشيسكو للموت في معسكرات الشمال، ووقع وثيقة تنازل مزورة مع فيتوريو ليتقاسما الذهب والتحف، وأودعا الأمانات هنا عند رودولف تحت اسم مستعار! وحين عاد فرانشيسكو اليوم، لم يأتِ لاستعادة إرث مسلوب، بل جاء ليمحو هذا السجل حتى لا تكتشف الشرطة الدولية سر ثروته القذرة!

سقط فرانشيسكو على ركبتيه فوق الفسيفساء الباردة، ودفن وجهه بين كفيه وهو ينتحب:

- اغفري لي يا لوسيا... اغفري لي يا ابنتي! كنت مجبرا... كان الثمن حياتي وحياة عائلتي!

صرخت لوسيا بدموع تشتعل قهرا وشرفا:

- بنيت حياتنا ورخاءنا في باريس وفلورنسا على دماء عائلة روسي البريئة؟ هل كان فستاني وطعامي ثمنا لخيانتك؟

التفت رودولف ببطء نحو ستيفانيا روسي التي كانت تقف متماسكة كتمثال من رخام كرارا، و قال بنبرة ملؤها التبجيل والشجن:

- والآن حان وقت إعلان الحقيقة الكبرى التي عشت من أجلها تسع سنوات... ستيفانيا ليست مجرد سكرتيرة وموظفة في الفندق. ستيفانيا هي ستيفانيا روسي، الطفلة الوحيدة الناجية للكونت أليساندرو روسي! انتشلتها من جبال الشمال بعد مجزرة عائلتها، وأخفيتها تحت كنف هذا الفندق كمديرة استقبال حتى تكبر ويحين يوم الحساب، وتسترد قصر والدها واللوحة المسروقة وكل ليرة سُلبت من دمائها!

جن جنون فيتوريو دي لوكا حين أدرك أن شباك تسع سنوات من التخطيط قد تحطمت تماما، فصرخ في ابنته ماري:

- اقتليهم جميعا يا ماريا! لا تدعي أحدا يخرج حيا من هذا القبو!

رفع فيتوريو مسدسه ليطلق النار على رودولف وهيلين، لكن كارلوس انقض عليه من الأرض بجسده المقيد بكل ما أوتي من يأس، صادما ركبتي فيتوريو ليحرف مسار الرصاصة التي اصطدمت بسقف القبو الحجري مسببة تساقط قطع الجص والحجارة!

في اللحظة ذاتها، انطلقت ماري لتطلق النار على لوسيا انتقاما وغيرة، لكن كارلوس تلقى الرصاصة في كتفه وصدره فداءً للفتاة، صارخا بأعلى صوته:

- اهربي يا لوسيا!

دوت طلقات مسدسات رجال الشرطة كقصف الرعد في جوف الكريبتة البيزنطية. أصابت رصاصة المفتش موريتي يد فيتوريو فشلت حركته وسقط مسدسه على الأرض، بينما أطبق اثنان من المحققين على ماري وجرداها من سلاحها وقيداها بالأصفاد الفولاذية وهي تصرخ وتلعن بلغة شوارع نابولي البذيئة، وانهار ماركو إلى جانب والده في بكاء هستيري تحت قبضة رجال الأمن.

الفصل العاشر والخاتمة: ندى التيبر وخيوط الفجر

تنتهي العاصفة دائماً، لكن الأحجار التي غسلها المطر لا تعود بيضاء كما كانت أبداً.

رينزو روسيليني

خيوط الفجر الرمادية تنبلج فوق روما؛ سيارات الكارابينييري تطوق الفندق، الحقيقة تنجلي بتسليم الفندق واللوحة لوريثتها الشرعية ستيفانيا، ورسالة وداع تنهي ظلال عام ١٩٤٤ إلى الأبد.

مع حلول الساعة السادسة صباحا، توقف المطر أخيرا عن الهطول فوق روما. انقشعت الغيوم الكثيفة ببطء لتفسح المجال لضوء فجر خريفي باهت، تخللته خيوط ذهبية شاحبة عكست بريق مياه نهر التيبر المنسابة بهدوء تحت جسور العاصمة القديمة. الرذاذ المتصاعد من أحجار الترافرتين كان يحمل رائحة التراب المغسول وبقايا دخان البارود المنبعث من باطن الأرض.

أمام البوابة الخارجية لفندق «ألبيرغو ديلي أومبري»، كانت أضواء سيارات شرطة روما (Questura) وسيارات الكارابينييري الزرقاء تومض في صمت مهيب يكسر سكون ساحة نافونا. تجمع العشرات من المارة وأصحاب المقاهي المجاورة يراقبون في ذهول موكب السقوط الذي لا يصدق.

خرج فيتوريو دي لوكا مقيدا بالأصفاد الفولاذية الثقيلة، معطفه الفاخر ملوث بالوحل وتراب القبو، ورأسه مطرق في انكسار زعيم عصابة فقد كل نفوذه في لحظة واحدة.

تلته ابنته ماريا دي لوكا (ماري)، التي كانت تحدق في وجوه الحاضرين بنظرات مشتعلة بالغل والانتقام، لكن قناع البراءة المزيف قد سقط عنها إلى الأبد ليودعها خلف قضبان سجن «ريجينا كويلي» الشهير على ضفة النهر.

أ ما فرانشيسكو فالكوني، ف قد خرج محطم الكبر ياء، يستند إلى ذراع أحد ضباط التحقيق بعد أن صودرت وثائقه وسجلا ته، تاركا وراءه ثروة زائفة شيدت على خيانة د ماء رفا قه في زمن الفاشية والحرب. وتبعه ابنه ماركو مطأطئ الرأس خجلا وخزيا، يواجه تهم التآمر والسرقة الجنائية.

على حمالة الإسعاف الطبية في باحة الفندق، كان كارلوس (ستيفان بيانكي) يرقد مضمد الصدر والكتف، وجهه شاحب لكن ملامحه بدت هادئة لأول مرة منذ شهور، كأن الر صا صة التي اختر قت جسده قد طهرت رو حه من كوابيس الخوف والابتزاز. اقتربت منه لوسيا فالكوني، أمسكت بيده الباردة برقة ومسحت عن جبينه حبات العرق البارد.

همس كارلوس بصوت ضعيف وابتسامة واهية:

- سامحيني يا لوسيا... لقد كنت وغدا، لكنني في تلك الليلة بين ذراعيك تمنيت لو كنت رجلاً نبيلاً يستحق عينيكِ.

ردت لوسيا بنبرة ناضجة مفعمة بالامتنان والرحمة:

- لقد أنقذت حياتي في القبو يا ستيفان، ووقفت في وجه الرصاص حين هرب الجميع. هذا يكفيك لتبدأ حياة جديدة حين تشفى وتدفع دينك للقانون. لن أنسى ما فعلته لأجلي أبدا.

ابتسم كارلوس وأغمض عينيه باطمئنان بينما كان المسعفون يرفعونه إلى داخل سيارة الإسعاف متجهة إلى مشفى سان جوفاني.

على درجات الرخام العريضة لمدخل الفندق، وقف المفتش ريكاردو موريتي إلى جانب شقيقته هيلين. كان ريكاردو

يضع ذراعه حول كتفها بحنان أخوي فياض، بينما كانت هيلين تتنفس نسيم الصباح العليل بعد أيام من الاختباء في رطوبة السراديب المظلمة.

قال ريكاردو وهو يمسح نظارته الطبية بمنديل أبيض:

- مقالك القادم في صحيفة «إيل تيمبو» سيزلزل إيطاليا كلها يا هيلين... كشفتِ أكبر شبكة لصوصية وابتزاز تستر عليها سياسيون منذ سقوط موسوليني.

ابتسمت هيلين ونظرت نحو نهر التيبر:

- لست أبحث عن الشهرة يا ريكاردو... كنت أبحث عن الحقيقة التي تدفنها روما في قيعانها كل ليلة مطر. والآن، استرد الموتى أسماءهم وحقوقهم.

وداخل البهو الرئيسي لفندق ألبيرغو ديلي أومبري، حيث كانت أشعة الشمس الصباحية تتسلل عبر النوافذ الزجاجية المقنطرة

لتضيء ثريا مورانو والأعمدة الرخامية الشامخة، وقف رودولف مينيلي أمام ستيفانيا روسي.

كان الصندوق الخشبي رقم تسعة مفتوحا على المنضدة الكبرى، وتستقر فوقه لوحة رائيلينو « مادونا البكاء» الأصلية؛ لوحة تموج ألوانها الزيتية بسحر عصر النهضة ودموع العذراء التي تبدو كأنها ترثي آلام البشرية. وبجانبها، استقرت صكوك الملكية العقارية وسجلات الكونت أليساندرو روسي الموثقة بختم الدولة الإيطالية الجديد.

تقدم رودولف بخطوات بطيئة وقورة، وتناول من جيبه الداخلي السلسلة الذهبية الكبيرة التي تحمل المفاتيح الرئيسية لكافة أبواب وأجنحة وخزائن الفندق. وضع السلسلة في يد ستيفانيا الرقيقة، وأطبق كفيه على يديها بحرارة أب أتم واجبه المقدس.

تحدث رودولف بصوت يتهدج بالتأثر والوقار الأرستقراطي:

- انتهت مهمتي يا كونتيسة ستيفانيا... تسع سنوات وأنا أحرس هذا المكان كأنه قبر أمانة ثقيلة، تظاهرت فيها بالقسوة والمكر حتى لا يشك فيتوريو ورجا له بأنني أحتفظ بالوريثة الشرعية تحت جناحي. هذا الفندق هو قصر والدك، وهذه اللوحة هي إرث أجدادك، وكل حجر هنا ينطق الآن باسمكِ الحق. لقد أديت الأمانة، والآن أستطيع أن أموت بضمير مرتاح.

انهمرت دموع ستيفانيا الدافئة، وعانقت رودولف عناقا طويلا غسلت به سنوات الشك والوحشة:

- لن تموت يا رودولف، ولن تترك هذا المكان أبدا... لقد كنت لي رفيقا وملاذا في أحلك ليالي حياتي. هذا الفندق سيبقى بيتنا معا، لكنه من اليوم لن يسمى فندق الظلال... بل فندق النور.

خرجت لوسيا فالكوني إلى شرفة الطابق الأول المطلة على روما. كانت تنظر إلى الأفق البعيد، حيث تعانق قباب الكنائس

العتيقة سماء الصباح الزرقاء الصافية. في جيب معطفها، كانت تحتفظ بزهرة القرنفل البيضاء الذابلة، لكن نظرتها لم تعد نظرة تلك الفتاة المراهقة التي جاءت تبحث عن مغامرة عابثة؛ لقد صقلت التجربة روحها، وجعلتها امرأة تعرف أن النبل الحقيقي لا يورث في شجرات الأنساب ولا يشترى بالتحف المنهوبة، بل يصنع بالموقف والضمير.

وعلى ضفة نهر التيبر، انطلقت مياه النهر الرقراقة تجري نحو البحر الأبيض المتوسط، جارفة معها أسرار تلك الليلة العاصفة، لتشهد روما ولادة يوم جديد تنقشع فيه الظلال، ويبقى الحق ساطعا كشمس إيطاليا الخالدة.

كلمة ختامية

في أعماق «فندق الظلال» وبين سراديب روما العتيقة، غاصت هذه الرواية في صراع الإرادة البشرية وهي تقف أمام اختبارات الشرف، الخوف، الخيانة، والغفران.

تتجلى روما في هذه السطور كشاهد أزلي يطوي بين أحجاره أسرار عام ١٩٤٤، ليعيد رسم ملامح العدالة حين تنجلي الظلال.

فبينما انزلق البعض وراء الأطماع، صمد آخرون وكفّروا عن أخطائهم بشجاعة اللحظة الأخيرة، ليتكشف الحق كاملا مع انقشاع العاصفة.

أتمنى أن تكون هذه الرحلة قد أخذتكم إلى أعماق التاريخ ونبض الشخصيات، وذكّرتنا بأن عواصف الليل الماطر تنتهي دائماً ببلج الفجر ووضوح الحقيقة على ضفاف نهر التيبر.

كل الشكر والامتنان لكل من جاب هذه الصفحات وعاش أسرار القبو البيزنطي حتى أنوار ساحة نافونا.

علاء فاضل الاسدي